
أحلى عشرين قصيدة حب
في الشعر العربي

طبعة دار الشروق الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

برقيا شروق ـ تلكس 93091 SHROK UN

بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

برقيا داشروق ـ تلكس SHOROK 20175 LE

فاروق شوشة



أحلى عشرين قصيدة حب في الشعر العربي

دار الشروق

هــذا الكتاب

بقلم : فاروق شوشة

كثيراً ما كنت أتوقف ـ أثناء البحث في كنوز لغتنا الجميلة ـ أمام نصٍّ شعري فاتن ، لشاعر عربي عاشق ، ينطق بصدق العاطفة والشعور ، وجمال التعبير والتصوير والأداء ، وأقول لنفسي : ما السبيل إلى أن يضُمَّ هذا النص وأمثاله من عيون الشعر العربي ، كتاب واحد ، يسهل الاطلاع عليه ، والرجوع إليه ، والطواف بين صفحاته . .

وكانت البداية . .

إن شعرنا العربي على امتداد قرون متطاولة حافل بالكنوز الثمينة ، والدرر الكامنة ، تنتظر دائماً من يجلوها ويعرضها ، مشرقة وضيئة ، نابضة بالحس الحضاري والوجدان الإنساني اللذيْن اتسمت بهما خلال هذه المسيرة الطويلة الممتلئة . وفي الوقت نفسه ، ما أندر المجموعات والمختارات الشعرية التي صدرت عن مكتبتنا العربية ، قديمها وحديثها ، لتضع بين يدي القارئ العربي ، والقارئ الأجنبي أيضًا ، تصوُّرًا عامًا لروح الشعر العربي ، وإطارًا عامًا لأبرز شخصياته وأعلامه، وأكثر ملامحه صدقًا وأصالة ، اللهم إلا بضعة دواوين شعرية قليلة كالمفضليات للضبي والأصمعيات لأبي سعيد الأصمعي

وجمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ومختارات شعراء العرب لابن الشَّجري .

ثم كان هناك لون آخر في تبويب هذه المختارات وتصنيفها بدأه أبو تمام بديوان الحماسة وتابعه البحتري ، والخالديّان، وابن الشجري في حماساتهم ثم أبو هلال العسكري في ديوان المعاني . وأخيرًا كان ديوان الشعر العربي الذي اختاره وصنّفه وقدم له الشاعر علي أحمد سعيد (أدونيس) . . . وكان صدوره منذ سنوات قليلة .

وظلت المكتبة العربية ، مكتبة الشعر العربي ، تعاني هذا الفراغ الكبير ، خاصة ونحن نترك الآن عصور الموسوعات والكتب الأمهات ونتجه مع إيقاع العصر وازدحام متطلبات الحياة إلى المختصرات والمختارات : المبوَّبة ، الموضوعية الاختيار ، المعتمدة في تصنيفها على ذوق عصري ، وفكر جديد ، يكشفان في الأثر الأدبي والشعري أبعادًا جديدة ، ويُسلِّطَانِ عليه رؤية جديدة كاشفة ، وبهذا يصبح تحاورنا مع التراث تحاورًا خصبًا بنّاءًا ، لا يكتفي بمجرد التكرار أو إعادة الحفظ والاستظهار ، وإنما يتجاوز ذلك إلى إعادة عرضه وتنسيقه وتنظيم جداوله وروافده ، وإعادة اكتشافه والوعي به من خلال حساسيتنا الجديدة ورؤيتنا العصرية المتفتحة ، بهذا وحده نعطي للتراث فرصة أن يحيا فينا وأن نحيا فيه ، وأن يصبح له حق الامتداد الفعال والصحيح في حياتنا الجديدة .

وآثرتُ أن تكون البداية قصائد الحب في شعرنا العربي ، وما أكثرها، وما أحفلها بالقيم الإنسانية والفنية والحضارية . ماذا لو اخترت من بينها أجمل عشرين قصيدة ، ليعيد تأملها وتذوقها القارئ

المعاصر ، مع قدر يسير من التقديم ، للنص والشاعر معًا ، بحيث يتم وضع القصيدة في إطار عصرها ، وفي داخل مناخها النفسي والتاريخي ، وفي إطار حركة الشعر العربي ودورانه المستمر .

وتوقعت أن يثور سؤال طبيعي : ولكن لماذا هذا الرقم بالذات (عشرون) ؟ لماذا لم تكن هذه القصائد ثلاثين أو خمسين أو خمسًا وعشرين أو أكثر أو أقل ؟

وهو سؤال كان سيتخذ له مكانًا أيضًا لو أن الاختيار قد وقع على رقم آخر ، والأرقام أولاً وأخيراً مسألة اعتبارية ! .

★★★

هذا الكتاب إذن رحلة مع عشرين قصيدة حب ، تبدأ من تخوم العصر الجاهلي ، فنتخيَّر لهذا العصر شاعرًا يمثل حسِّيته ونهمه وإقباله على متع الحياة وتوزُّعه بين يوميه : يوم فروسيته وكرمه ويوم لهوه ومؤانسته ، وهي سمات العربي الفارس القديم ، في حبه ونظرته إلى المرأة كما نجدها لدى المنخَّل اليشكري .

ثم نتابع المسيرة ، وقوفًا مع صفحات شعرنا الأموي والعباسي ، يطالعنا وجه عمر بن أبي ربيعة : فتى قريش اللاهي الماجن المولع بتعقب الحسان والتشبيب بهن ، ووجوه الصفوة الممتازة من الشعراء العذريين : مجنون ليلى وجميل بثينة وقيس لبنى وكثير عزة ، وعلى مقربة من هؤلاء العباس بن الأحنف ، وبين الطائفتين ينفرد يزيد بن معاوية، ثم نطالع وجوه ابن الرومي وأبي فراس الحمداني والشريف الرضيّ ودوقلة المنبجي وابن زريق البغدادي ثم صفيّ الدين الحلي ـ على غير ترتيب مقصود ـ وكلها وجوه تضيف لتجربة الحب في الشعر

العربي ألوانًا وتنويعات ومذاقات مختلفة ، تُثريها وتعمقها ، وتكشف عن جوهر الإنسان العربي والشاعر العربي في نظرته إلى الحياة والوجود من خلال المرأة . .

وعلى مسافةٍ من هؤلاء نلتقي بوجهين آخرين يمثلان شعر الأندلس والمغرب العربي هما : ابن زيدون والحُصْري القيرواني ، ثم يطالعنا العصر الحديث لنتخيَّر من بين أعلامه : الشابيّ وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي ومحمود حسن إسماعيل .

★★★

يبقى بعد هذا أن نشير إلى أن كل قصيدة من هذه القصائد العشرين امرأة جميلة ، امرأة معشوقة ، افتن في تصويرها وتجسيد مفاتنها والهُيام بها شاعر عربي ملهم ، أضفى عليها من إبداع ريشته وحرارة عاطفته ما جعلها لوحة مكتملة الأبعاد والسمات غنية بالفن الجميل ، والشعور الصادق معًا .

فلنتأمل نحن ـ بذوق أبناء القرن العشرين ـ هذه الباقة من قصائد الحب ، ولننظر كيف كان الشاعر العربي يرى محبوبته وكيف كانت صورتها في نفسه ، شكلاً وملامح ووجدانًا ، وإلى أي حد يلتقي الكثيرون من الشعراء في رسم لوحة بعينها هي صورة هذه المحبوبة من المخارج ، تمثال جمال ، بمقاييس خاصة ، من خلال ذوق صحراوي معين ، خلع ظله على عصور شعرية متتابعة .

ثم لنتأمل كيف استطاع الشعراء العذريون أن يكسبوا تجربة التعبير عن الحب أعماقًا جديدة وملامح وسماتٍ لم تكن لها ، وكيف أصبحت نظرتهم إلى المرأة المحبوبة نظرة إلى كائن إنساني ، يموج بالمشاعر

والعواطف والأحاسيس ، وكيف ترك لنا هؤلاء العذريون في قصائدهم خلاصة لوعتهم وحرمانهم وتعففهم وعشقهم السامي المجرد ، هذا العشق الذي رفدته تقاليد البادية العربية ثم غذّته قيم الإسلام ومثله العليا ، فالتقت فيه قيم الفروسية والنبل والنخوة بقيم التعفف والتسامي والتطهر ، والذي أصبحت آثاره الشعرية ـ فيما بعد ـ ذخيرة فنية واجتماعية وحضارية نادرة المثال ، موفورة العطاء .

ثم لنمض مع قصيدة الحب العربية نفاذًا في التاريخ ، وعبورًا إلى أقطار وبلدان عربية جديدة ، وتجسيدًا لحلم العاشق العربي ، في بغداد والقيروان والأندلس وتونس والقاهرة ، عبر عصور شتى ، وتراكمات حضارية ونفسية شتى ، فهي مرصد صادق التمييز والرصد لحقيقة هذه المسيرة التي قطعها الإنسان العربي في رحلة الزمان والمكان، منطلقًا من إسار الماضي والمتوارث انعطافًا إلى آفاق الجدة والمعاصرة .



ولسنا نزعم أن هذه القصائد ، هي وحدها أجمل القصائد وأروعها وأكثرها تمثيلاً لحقيقة شعر الحب في ديوان الشعر العربي الكبير ، إنه مجرد اختيار خاص ، ساعد عليه ميل وهوى ، كثيرًا ما تجاذبني إلى بعض القصائد المختارة ، فعشت فيها طويلاً ، وتأملتها كثيرًا ، فلما سنحت الفرصة لوضعها داخل هذا الإطار كانت أسبق من غيرها إلى ذاكرتي واهتمامي ، فعنيت بها قبل سواها . .

ومن المؤكد أن في شعرنا العربي عشرات بل مئات من قصائد الحب الجميلة ، لم تزل قابعة في مكانها بين الصفحات المطوية ، التي تراكم

عليها الإهمال والنسيان ، وأكاد أحس بها تتململ في رقدتها الطويلة ، لعل يدًا تمتد إليها ، تنفض عنها الجحود والتنكر ، وتعيدها إلى مكانها من دائرة اهتمامنا وتذوقنا . . وفي هذا فليتنافس المتنافسون . ولا شك أن قارئنا العربي هو الرابح في النهاية عندما يجد بين يديه عشرات المختارات والمصنَّفات والدواوين التي تعيد ماء الحياة إلى هذه الكنوز الدفينة ، واللوحات الفنية الإنسانية النادرة .

وأتركك أيها القارئ ، مع هذه القصائد العشرين ، التي تشكل في مجموعها وثيقة شعرية وعاطفية فريدة ، تعطي لحنًا أساسيًا ممتدًا ، متعدد الإيقاعات والأنغام ، متنوع المقامات والضروب ، لتعبير الشاعر العربي عن تجربة الحب .

وما أروعه من تعبير !

فاروق شوشة

فتـــاة الخِـــدر

للمُنَـخَّـل اليشكُريّ

غايةُ ما تقوله لنـا عنه كتب الأدب والتراث إنه شاعر جاهلي ، حفظ لنا الرواة قصيدة له ، لامية ، ماجنة ، وهو إلى جانب هذا شاعر متظرف مؤثر للسهولة في القول .

فإذا ما أردنا الاستزادة ، ورجعنا إلى أمهات كتب التراث وجدناها تقول عن هذا الشاعر : اتهمه النعمان بن المنذر بامرأته « المتجردة » ، وكانت ذا جمال فاتك ، فأغرقه أو دفنه حياً، أو أخفاه ، ويُضرب به المثل لمن هلك ولم يعرف له خبر .. مات كما يروى سنة ستمائة وثلاث ميلادية .

لنحاول إذن أن نسلك سبيلاً آخر يقرّبنا إلى هذا الشاعر الجاهلي الذي استطاع أن يعيش في ذاكرة الشعر العربي بقصيدة واحدة ، ليست من معلقات العرب، ولا مُذهّباتهم ، ولا هي من حماستهم ومفاخرهم،ولا هي في تسجيل مآثرهم ومفاخرهم— إنها شيء آخر غير هذا كله.. وليكن هذا السبيل هو قصيدته

نفسها ، نستقرئها حقيقة هذا الشاعر ، وصورة نفسه ، ونطل منها على وجدانه وأشواقه ومطامحه ..

شيء ما يلفت النظر في قصيدة المنخل بن الحارث اليشكري – وهذا هو اسمه الكامل – ذلك هو ما فيها من ظرف ورقة وفكاهة ، فهي تنطلق بشخصية ذلك العربي القديم ، يوماه يوم وغى وطعان ويوم متعة ولهو وانطلاق ، اليوم خمر وغداً أمر – كما يقول امرؤ القيس – هذان الوجهان لعملة الحياة يمثلان معاً رحلة الوجود بالنسبة لهذا العربي القديم ، حتفه في شجاعته وفروسيته ، ومتعته في نشوته ومجونه بلا حدود .

لكن هذا الظرف وهذه الفكاهة ، تبلورهما القصيدة على نحو غير مألوف في الشعر العربي القديم . إن الشاعر الفاتك الجسور ، يقتحم الخِدر على فتاته في يوم لهوه ومتعته ، وهو يختار للهوه ومتعته يوماً مطيراً ، لا يصلح لصيد أو قتال أو زيارة ، وإنما هو يوم مؤانسة وفراغ بال ، وهو يبادلها حواراً يشف عن رغبته الجامحة ونزوته العارمة ، فهي تلمس ما بجسمه من حرور ، أي من حرارة واشتعـال ، دليل فحولته ورجولته ، وتسعد فتاته بهذا الاقتحام وتطرب له وتهش ، والشاعر يخشى أن يتبادر الى الذهن أن متعته بفتاته هذه متعة عابرة ، فيعطي لعاطفتها وعلاقتها المشتركة عمقاً في الزمان حين يؤكد بروح مرحة أنه يحبها وتحبه وأن بعيره أيضاً يحب ناقتها ، توكيداً لطول أمد المحبة وطول الإلفة بين العاشقين .

ثم يمعن شاعرنا الفاتك الجسور – والذي سنجد له أشباهاً في شعرنا العربي بعد ذلك – كوضّاح اليمن وعمر بن أبي ربيعة ومسلم بن الوليد (صريع الغواني) وغيرهم – يمعن في تظرفه أكثر وأكثر ، مصوّراً حاله وقد تملكته نشوة الشراب ، وسرت فيه حُميّا الخمر فتخيل نفسه الملك النعمان رب « الخورنق » وصاحب السرير – أي العرش – بلغة ذلك الزمان ، فإذا صحا ، وعاد إليه صوابه وجد نفسه كما كان ربّ الشويْهة والبعير ، لا يملك إلا ما يملكه العربي البسيط شياهً وبعيراً..والمقابلة هنا بين الحالين : حال نشوته وتصوراته وحال صحوه وعودته الى الواقع مقابلة طريفة ، صاغها الشاعر صياغة عذبة ، لا تكلف فيها ولا صنعة ولا تزويق ..

يبقى بعد ذلك أن نشير إلى لغة هـــذا الشاعر الفارس الفاتك ، وتراوحهـــا بين الجزالة والجيشان والوقع الآسر في مستهلقصيدته وهو يتحدث عنشجاعته وفروسيته ومشاركته للفرسان والأقران ، وبين نعومتها وسهولتها وانسيابها عندما انتقل الى الحديث عن لهوه ومجونه وشرابه وتخيّلاته ، وكأنه يعطي لكل وجه من وجهيْ حياته لغته الشعرية الموائمة في التعبير ، وإيقاعه الموسيقي المواكب في النفس والوجدان .

ولقد تركت هذهالقصيدة –على بساطتها وقصرها وسهولتها الممتنعة – آثاراً عميقة في أشعار كثيرين حاولوا استلهام الروح المفعم بالحياة لدى المنخّل، وقدرته الفذة على التصوير الموحي،

بأبسط الألوان والظلال ، حتى إننا نجد شاعراً حديثاً هو علي الجارم يقول في إحدى قصائده مخاطباً « بغداد » وكان وقتها يمثل مجمع اللغة العربية في أحد مهرجانات العلم والأدب :

حتى يكاد يحبُّ نخلك نخلُ أهلي في رشيدِ

وهو هنا ينظر إلى بيت المنخل :

وأحبُّهـــا وتحبّني ويحبُّ ناقتها بعيري

وقبل الجارم بعصور بعيدة، موغلة في القدم ، نجد الصورة الرئيسية أو المشهد الرئيسي الذي تُصوّره قصيدة المنخل – مشهد اقتحام الخدر على المحبوبة – متكرراً في شعر «وضاح اليمن» الذي عاش بعد وفاة المنخّل بحوالي مائة عام: وهو يقول :

قالت : ألا لا تلجنْ دارنا إنّ أبانا رجــل غـــائرُ
قلت : فإني طالب غرّةً منـــه وسيفي صارم باتر
قالت : فإن القصر من دوننا قلت : فإني فوقه ظاهر
قالت : فإن البحر من دوننا قلت : فإني سابح ماهر
قالت : فحوْلي إخوة سبعة قلت : فإني غالبٌ قاهر
قالت : فإنّ الله من فوقنـا قلت : فربّي راحم غافر
قالت : لقد أعييْتنا حُجّةً فأتِ إذا ما هجع السامرُ
واسقط علينا كسقوط الندى ليلةَ لا ناهٍ ولا زاجرُ !

كما نجد المشهد نفسه متكرراً في شعر عمر بن أبي ربيعة ، وهو يصف اقتحامه خباء محبوبته « نُعْم » وقد أخذ يترقب مغيب القمر ورواح الرعيان ونوم السمار :

فلما فقدتُ الصوت منهم وأطفئت
مصابيحُ شُبَّت بالعشاءِ وأنور
وغاب قُمير ، كنت أرجو غيوبه
وروّح رعيانٌ ونوّم سمّرُ
وخُفّض عني الصوتُ ، أقبلت مشية الـ
حباب ، وشخصي خشية القوم أزور[1]
فحييتُ إذ فاجأتها ، فتولّهت
وكادت بمخفوض التحية تجهرُ

وسوف يطالع القارىء النص الكامل لقصيدة عمر بن أبي ربيعة بين صفحات هذا الكتاب ..

أما الآن فإلى قصيدة المنخل اليشكري :

---

(١) ويروى البيت أيضاً : وركني خشية القوم أزورُ .

فتاة الخِدْر

شجاعة وكرم :

إنْ كنتِ عاذلتي فسيري
نحوَ العراقِ ، ولا تحوري [١]

لا تسألي عن جُلِّ ما
لي ، وانظري كرمي وخيري [٢]

وفوارسٍ كأوارِ حرِّ
النارِ أحلاسِ الذُّكورِ [٣]

شدُّوا دوابرَ بيضِهم
في كلِّ مُحكَمةِ القتيرِ [٤]

واستلأموا ، وتلبَّبوا
إنَّ التلبُّبَ للمغيرِ [٥]

---

(١) عاذلتي : لائمتي ومعاتبتي . لا تحوري : لا ترجعي .

(٢) جلّ مالي : كثرة مالي ومعظمه .

(٣) الأوار : شدة التوهج والاشتعال . أحلاس الذكور : فرسان الخيل الملازمون لظهورها .

(٤) الدوابر : الأواخر . البيض : جمع بيضة الحديد وهي تلبس في الرأس . القتير : مسامير الدروع .

(٥) استلأموا : لبسوا اللامات وهي الدروع . تلبّبوا : أي تحزموا، وهي علامة التأهب للإغارة على العدو .

وعـلى الجيــادِ المضمـرا
ت ِ فوارسٌ مثل الصقورِ[1]

يخرجـن من حلـل الغبــا
رِ يجفن بالنعـم الكثيرِ[2]

أقررْتُ عيني مــن أولـ
ئك والفوائح بالعبــيرِ[3]

وإذا الريــاح تنـاوحت
بجـوانبِ البيت الكسيرِ[4]

ألفيتــني هشّ اليــديْ
نِ ، بمري قِدْحي أو شجيري[5]

---

(١) المضمرات : التي ضمرت ، أي هزلت من كثرة الرياضة وسرعـة الحركة .

(٢) يجفن : يسرعن .

(٣) من أولئك : أي من الفوارس . الفوائح بالعبير : النسـاء الذكيات الرائحة .

(٤) تناوحت : هبت من كل ناحية . الكسير : المشدود الى الأرض بالحبال .

(٥) ألفيتني : وجدتني . هش اليدين : خفيف اليدين . بمري قدحي : بإجالته ودورانه . الشجير : الغريب (اذا حل الجدب وجدتني خفيف اليدين كرماً وجوداً أوزع أقداحي) .

وأحبها وتحبني :

ولقد دخلتُ على الفتا
ةِ الخِدْرِ في اليوم المطيرِ[1]

الكاعب الحسناءِ ترفُ
لُ في الدمقسِ وفي الحريرِ[2]

فدفعتها فتدافعت
مشيَ القطاة إلى الغديرِ[3]

ولثمتها فتنفّستْ
كتنفّس الظبْيِ الغريرِ[4]

ويروى البيت أيضاً :

(وعطفتها فتعطفت
كتعطف الظبي الغرير)

فدنت وقالت ، يا منَخّلُ
ما بجسمك من حرورِ[5]

---

(١) اليوم المطير : اختاره الشاعر لأنه يوم المؤانسة وفراغ البال لا صيد فيه ولا غارة ولا زيارة .
(٢) الكاعب : التي بدأ ثديها في النهود . الدمقس: الحرير الأبيض .
(٣) القطاة : نوع من الطير يشبه الحمام ، وقيل : هو الحمام .
(٤) الغرير : ولد الظبي وهو صغير .
(٥) الحرور : شدة الحرارة والتوهج .

مـــا شفَّ جسمي غيرُ جسـ
مكِ ، فاهدئي عنّي وسيري [1]

وأُحبُّهـــــــا وتحبُّـني
ويحبُّ ناقتهـــا بعـيري

خيالات النشوة :

يـــا رُبَّ يـــومٍ للمنخَّـ
لِ ، قـد لَهَـا فيـه قصيرِ

ولقـد شربتُ الخمـــر بالـ
خيـلِ الإناثِ وبالذكورِ

ولقـد شربت الخمـــر بالـ
عبـدِ الصحيـــحِ وبالأسيرِ

ولقـد شربتُ مـن المـدا
مـةِ بالصغـير وبالكبيرِ [2]

---

(١) مـــا شف جسمي : ما هزله وأضعفه . اهدئي عني : الزمي السكون عني .

(٢) بالصغير وبالكبير : بصغير ماله وكبيره . أو بالدوم وبالدينار . أو بالقدح الصغير والقدح الكبير .

فـاذا انتشيتُ فإنـني
ربُّ الخورْنقِ والسريرِ (١)

وإذا صحـوتُ فإنـني
ربّ الشويْهـةِ والبعـيرِ (٢)

يـا هنـدُ مَـنْ لمتيّـمٍ
يـا هندُ .. للعاني الأسيرِ (٣)

(١) الخورنق : قصر النعـمان قرب النجف في العراق . السرير : يقصد به العرش ، ويروى : و « السدير » : وهو قصر آخر في الحيرة بالقرب من الخورنق اتخذه النعمان الأكبر لبعض ملوك العجم .

(٢) اذا صحوت : اذا ذهبت نشوة السكر . رب الشويهة والبعير : عربيّ لا يملك شيئاً إلا الشياه والبعير .

(٣) هند : بنت النعمان بن المنذر بن ماء السماء حاكم الحيرة . العاني: المقيد .

نُغـــم

لعمر بن أبي ربيعة

وهذا فتى قريش المدلل ، وأول شاعر ينبغ من بينها ويطير ذكره في القبائل ، وإذا بلغة الضاد على شفتيه تكتسي رداءها القُرَشيّ ، وطابعها العربي الأصيل ، في رقّةٍ تفتن القلوب وتستهوي الألباب ، وديباجةٍ جزلة ولكنها ناعمة ، متينة السبك غير أنها تفيض سلاسة وليونة ..

عند عمر بن أبي ربيعة ، ينعطف الشعر العربي ، ويتخذ سمتاً خاصاً ومذاقاً خاصاً . هنا ، وللمرة الأولى في تاريخ هذا الشعر ، يفاجئنا شاعر مطبوع ، يدور شعره كله حول موضوع واحد هو الغزل ، شاعر لا يمدح ولا يهجو شأن غيره من الشعراء ، إنه فقط يحبّ ، ويعلن عن هذا الحب في شعره ، ديوان شعره كله ديوان حب ، والقصيدة الواحدة من قصائده قصيدة حب كاملة . كان الغزل في شعر الشعراء – قبل عمر – شيئاً يتخفى أو يبين داخل غيره من أغراض القصيد ، وهو

في الأكثر الأعم مدخلٌ يُفضي إلى الغرض الرئيسي من القصيدة ، أو هو حُسْنُ استهلالٍ يصل من خلاله الشاعر إلى موضوعه الجوهري مدحاً أو فخراً أو هجاء أو تأملاً .

وشاعرنا – الذي ولد ومات بالحجاز (من ٦٤٤ إلى ٧١٢ ميلادية) وعاش بمكة ، وكان يتردد على المدينة واليمن والشام والعراق – قد أتيح له من شبابه وجماله وفتوّته وشاعريته وعراقة أصله وثرائه فضلاً عن كونه وحيد أمه ، ما يسّر أمامه سبيل العيش اللاهي العابث ، وهيّأ له أفانين المتعة واللهو ، يتنقل من غاية إلى غاية ، ومن التشبيب بحسناء إلى الولع بأخرى ، ومن تتبع خطا قرشية إلى التغزل بأخرى غير قرشية ، وما أكثر ما كانت مواسم الحج ، بالنسبة له، مواسم للحب واللذة والدوران وراء اللاتي قدمن للحج ، من بقاع الوطن الاسلامي، يتعرّض لهن ، ويشبّب بهن، وينسج حولهن الأقاصيص في شعره ، ويحاورهن، ويترقب خروجهن للطواف محرماتٍ ، فيقعن من فؤاده موقعاً يملك عليه لبّه ، وما يلبث شعره أن يسير ويروى ويتناقله الركبان والسمّار . وبعض هؤلاء اللاتي قدمن للحج قد بلغتهنّ قصص عمر وأفاعيله وأشعاره ، ووددن لو كان لهن حظ من شهرة ينلنها بفضل أبيات قليلة منه . إنّ التفات عمر إليهن – دون غيرهن – حظوة وتكريم ، وذكرهن في شعره مجد وأيّ مجد ، يتهن به على الصواحب والأتراب .

وفتى هــذا شأنه ، لا يمكن أن يعلق فؤاده بواحدة من النساء يصدق لها الحب والعهد ، كلّا ، وإنما هو فؤاد قلق ، طائر ، متنقل، سريع الزهد والعزوف، دائم البحث والتنقيب والتجوّل ، لذلك فلن يفاجئنا أن نطالع في شعره أسماء شتى لمحبوبات توقف عندهن بعض الوقت ثم واصل تطوافه وتجواله. ليس هناك إذن اسم واحد ، لمحبوبة واحدة ، يكن لها كل الحب وكل الاخلاص ، وليست هناك معالم واضحة لهذا الحشد من الحسان ، إنه دائمـاً يصفهن من الخارج ، القوام والوجه والعينين والفم والمشية والشعر ولا يفوته أيضاً أن يصف اللون والصوت، هو دائماً وصف من الخارج قد تتشابه فيه المواصفات والمقاييس، لكننا لن نجد من خلاله شخوصاً حية، لها تفرّدها وتوهجها الخاص ، لها إنسانيتها المتميزة . وعمر في هذا شأنه شأن غيره من الشعراء العرب القدمـاء ، وإن كان ينفرد من بينهم بمـا أوتيه من نفاذ إلى خوالج نفس المرأة ، وقدرة على تصوير عواطفها وأهوائها ونزوعاتها ، وتقلبهـا ، وإحاطة بحركاتها وإشاراتها ولفتاتها وأساليب حديثها وطرق تعبيرها.. مما ينمّ عنه شعره الذي وصل إلينـا . هذا الشعر الذي تأثر بازدهار الغناء في عصره، فجاء على صورة مقطوعات أكثر منه على صورة قصائد ، وفي أوزان خفيفة أو مجزوءة ، وألفـاظ سهلة واضحة حلوة الجرس والرنين .

وفي شعر عمر بن أبي ربيعة ، تطالعنـا ، ولأول مرة في

شعرنا العربي ، القدرة على القصّ وكتابة شعر الغزل القصصي ، فالكثير من قصائده تجارب عاطفية في إطار من القصة ، يتخللها غالباً حوار بين شخوصها وأبطالها ، وهو مستوى من التعبير الشعري القصصي تفوّق به عمر كثيراً على أستاذه الأول في هذا الفن – امرىء القيس – كما تفوق بقدرته الخارقة على فهم نفسية المرأة وتمثّل حالاتها المختلفة ، والقدرة على خلق الحوار الطبيعي النابض بالحياة والجمال والطرافة .

هذا الشاعر المترف الملول ، الكثير التقلب والتنقل من واحدة إلى أخرى ، هو أيضاً شاعرٌ معجب بنفسه كل الإعجاب ، شاعر نرجسيّ يمتلىء شعره بذكر تهافت الحسان عليه ، وإعجابهن به وبشعره ، ومن هنا نجد في قصائده لوناً من التشبيب بنفسه ، والحديث عن طلب النساء له وسعيهن في إثره :

ثم اسبطرّتْ تشتد في أثري
تسأل أهل الطواف عن عُمرِ

إنه المطلوب وليس الطالب ، وهو المطارَد وليس المطارِد ، وهو من تتعرض له النسوة في الطريق بالغمز والإشارة ، وهو من يصفنه بالقمر ، ويهيئن له سبل اللقاء في الخلوات ، ويدبرن بينهن وبينه رُسلاً يحملن إليه رسائل الوجد والشوق والهيام :

هل من رسولٍ يكفي حوائجنا
بحــاجة تُشتهى إلى عمرِ ؟

وهنّ في قصائده يتحدثن عنه حديث من تيّمهن الحب وبرّح بهن الهيام ، وما أسعدهن به حين يطلع عليهن ممتطياً جواده الأغرّ وهن منغمساتٌ في الحديث عنه والتلذذ بذكره:

قلن : يسترضينها : مُنْيتُنا
لو أتانا اليومَ في سرٍّ عُمرْ !

بينما يذكرْنني أبصرْنني
دون قيد الميلِ ، يعدو بي الأغر

قالت الكبرى : أتعرفن الفتى ؟
قالت الوسطى : نعم ، هذا عمر

قالت الصغرى وقد تيّمْتُها :
قد عرفناه ، وهل يخفى القمر !

فأيُّ زهو بالنفس وأي افتتان بالذات ؟

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن من شعر عمر بن أبي ربيعة تحمل كل خصائص شعره وسمات شاعريته ، فضلاً عن أنها أطول قصائده َنفَساً وأشهرها بين الرواة ودارسي الأدب ، ومتذوقي شعرنا العربي .

القصيدة تدور حول واحدة من محبوباته هي « نعم » ، ويستهلها بالحديث عن شمل غير مكتمل وحبْلٍ غير موصول،

وحنين إلى صاحبته هذه التي حالت الحوائل بينه وبينها ، وفي مقدمة هذه الحوائل أقاربُها الذين يقطعون الطريق عليه ويتنمرون له . ثم يصل بنا إلى جوهر القصيدة حين يصف – في مهارة واقتدار – ليلة « ذي دُوران » حين أخذ يترقب نوم المحيطين بنُعْم ، حتى إذا هجعوا وأطفئت المصابيح ونام السمّار فاجأها بالزيارة ، ثم هو يصف وقع المفاجأة عليها ، وما دار بينهما من حوار وهي متوجسة خائفة من الفضيحة لو أحس بهما القوم – وينتهي الحوار بقولها لعمر :

فأنت – أبا الخطاب – غيرُ مدافِع
علَيَّ أميرٌ ، ما مكثتَ ، مُؤمَّرُ

ويبيت معها عمر ، ويلذّ له الوصال ، ويا له من ملهى ومجلس لم يكدره مكدر ، وتمضي الساعات وهما في نشوة اللقاء ، حتى يروعهما صوت المنادي يؤذّن للرحيل وقد أوشك الليل على الانقضاء . وهنا تبلغ القصة قمتها وتستحكم عقدتها ، لقد استيقظ القوم وتنبهوا ، فكيف لعمر أن يغادر الحي دون أن يحسوا به ، وتدبّر له صاحبته المخرج ، تفضي لأختيها بالأمر لعلهما تعينان عليه ، وتعطيه الصغرى رداءها فيرتديه ، ويمشي بينهن حتى يغادر ، فلا السر يفشو ولا الفضيحة تقع ، ولا ينسى وهو يختتم قصيدته بعد أن نجا بتدبير الأختين، لا ينسى أن يغبط أهل صاحبته برائحتها الطيبة ومذاق فمها المسكر .

وكأنه يريد أن يقول إن أثر هذه الرائحة المعطرة وهـــذه الأعطاف الناعمة ما يزال عالقاً بذاكرته لم يفارقه بعد .

يبقى بعد هـــذا أن نشير إلى الصنعة الشعرية المتقنة التي تنبض بها هذه اللوحة الشعرية الفاتنة من آثار عمر بن أبي ربيعة وإلى القدرة الفذّة على التصوير والتجسيد وتوزيع الألوان والظلال ، خاصة وهو يرسم الجمال النفسي لشخوصه وأبطاله ، وإلى الإيقاع الموسيقي المواكب لحركة النفس هدوءاً واندفاعاً ، قلقاً واطمئناناً ، وإلى التفنن في تصوير الإطار الطبيعي للمشهد وقد غاب القُمير وهجع السمّار وواتت الفرصة ..

وقصيدة « نعم » بعد هذا كله شاهد صدق على مغامرة شاعر فاتك ، معجب بنفسه ، مفتون بذاته ، وبحظوته لدى النساء ، واقتداره على الوصول إليهن ، شاعر استطاع أن يخط في مسيرة الشعر العربي عامة ، وشعر الغزل والحب خاصة ، أثراً فريداً غير متكرر ، تنتمي جذوره البعيدة إلى امرىء القيس وتنتهي فروعه القريبة إلى نزار قباني .

***

يقول عمر بن أبي ربيعة :

« نُعْم »

استهلال وشوق :

أمن آل نُعمٍ أنت غادٍ فمبكرُ
غداةَ غدٍ ، أم رائحٌ فمهجّر [1]

لحاجة نفسٍ لم تقل في جوابها
فتبلغ عذراً والمقالة تُعذِرُ

تهيم إلى نُعمٍ ، فلا الشمل جامعٌ
ولا الحبل موصولٌ ، ولا القلب مقصر

ولا قربُ نُعْمٍ إن دنت لك نافع
ولا نأيها يسلي ، ولا أنت تصبرُ

وأخرى أتت من دون نُعم ، ومثلها
نهى ذو النهى لو ترعوي أو تفكر[2]

إذا زرتُ نُعماً ، لم يزل ذو قرابة
لها ، كلما لاقيته ، يتنمّرُ .

---

(١) غادٍ فمبكر : أي سائر في الصباح الباكر قبل طلوع الشمس . الرائح : السائر في الرواح وهو وقت العشي . المهجّر: السائر في الهاجرة وهي الحر الشديد .

(٢) النهى : العقل . ترعوي : ترجع عن الضلال .

عزيز عليه أن ألمَّ ببيتها

يُسرُّ لي الشحناء، والبغض مُظهَرُ[1]

ألِكني إليها بالسلامِ، فإنه

يشهَّرُ إلمامي بها ويُنكَّرُ[2]

بآية ما قالت غداةَ لقيتها

«بمدفع أكنانٍ»: أهذا المشهَّرُ؟[3]

أشارت بمِدْراها، وقالت لأختها:

أهذا المغيريُّ الذي كان يُذكر؟[4]

أهذا الذي أطريتِ نعتاً، فلم أكن

وعيشِكِ، أنساه إلى يوم أقبرُ[5]

فقالت: نعم، لا شك غيَّر لونه

سُرى الليل يحيي نصَّه، والتهجُّر[6]

---

(١) الشحناء: الكراهية والبغضاء.

(٢) ألِكني: أي أحمل رسالتي. يشهر: يذاع.

(٣) «مدفع أكنان»: اسم موضع.

(٤) المدرى: حديدة يحك بها الرأس. المغيري: أي عمر، نسبة الى المغيرة جد أبيه.

(٥) أطريت نعتاً: أحسنت وصفاً.

(٦) يحيي نصه: يحيي مروره وانقضاءه. التهجر: السير في الهاجرة وهي الحر الشديد.

لئن كان إياه ، لقد حـال بعدنا
عن العهد ، والإنسان قد يتغيّر[1]

صورة وصفية للشاعر:

رأتْ رجلاً أما إذا الشمسُ عارضت
فيضحى ، وأما بالعشيّ فيخصَر[2]

أخا سفرٍ جوابَ أرضٍ ، تقادفَتْ
به فلواتٌ ، فهو أشعثُ أغبر[3]

قليلاً على ظهر المطيّةِ ظلّهُ
سوى ما نفى عنه الرداءُ المُحبّر[4]

وصورة لحال الحبيبة :

وأعجبها من عيشها ظلُّ غرفـة
وريّانُ ملتفُّ الحدائقِ أخضرُ

---

(١) حال : تغير .
(٢) عارضت : أي قابلت وواجهت . يضحى : يتعرض للشمس .
يخصر : يشتد به البرد .
(٣) الفلوات ، جمع فلاة وهي الصحراء .
(٤) الرداء المحبر ، المزين والمطرّز .

ووالٍ كفاها كلّ شيءٍ يُهمّها
فليست لشيءٍ آخرَ الليلِ تسهرُ(1)

وصف المغامرة الليلية :

وليلة « ذي دوران » جشّمتني السرى
وقد يجشم الهولَ المحبُّ المغرّر (2)

فبتُّ رقيباً للرفاق على شفاً
أحاذر منهم من يطوف وأنظر (3)

إليهم ، متى يستمكن النوم منهمو
ولي مجلسٌ لولا اللبانة أوعرُ (4)

وباتت قلوصي بالعراءِ ورَحْلُها
لطارقِ ليلٍ ، أو لمن جاء ، مُعورُ (5)

وبتُّ أناجي النفس : أين خباؤها ؟
وكيف لما آتي من الأمر مصدرُ ؟

---

(1) الوالي : الزوج أو القيم . كفاها كل شيء : أي كفل لها كل احتياجاتها ورغائبها .

(2) « ذو دوران » : اسم موضع . جشمتني : أي كلفتني. المغرّر: الذي يعرّض نفسه للهلاك .

(3) على شفا : على حذر وتربص .

(4) لولا اللبانة : لولا الحاجة والهوى .

(5) قلوصي : ناقتي . معور : أي ظاهر واضح .

فدلّ عليها القلب ريّا عرفتهـــا

لها ، وهوى النفس الذي كاد يظهرُ [1]

فلمـا فقدت الصوت منهم ، وأُطفئت

مصابيحُ شُبّت في العِشـــاء وأنورُ

وغـــاب قُمير كنت أرجو غيوبَه

وروّح رعيـــانٌ ونوّم سُمّرُ

ونفضْتُ عني النوم ، أقبلت مشيــة الـ

حباب ورُكني خشية القوم أزور [2]

فحييتُ إذ فاجأتُهـــا ، فتولّهت

وكادت بمخفوض التحيّـــة تجهر [3]

وقالت وعضّت بالبـنان : فضحْتني !

وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسَرُ

أريْتَكَ ، إذ هُنّا عليك ، ألم تخف ؟

وُقيتَ ، وحَولي من عدوّك حُضَّرُ [4]

---

(١) الريّا : الرائحة الذكية .

(٢) مشية الحباب : أي كما تمشي الحية ، وركني أزور : أي وجسمي مائل منعطف خشية أن يراني أحد .

(٣) تولهت : اشتد بها الوجد .

(٤) أريتك : أي قل لي وأخبرني ، أصلها أرأيتك . حُضّر : أي حاضرون .

فوالله مـــا أدري أتعجيل حاجةٍ
سرَتْ بك، أم قد نام من كنت تحذُرُ ؟

فقلت لها : بل قادني الشوق والهوى
إليكِ ، وما عينٌ من النـاس تنظرُ

فقالت وقد لانت وأفرخ روعهـا :
كلاكَ بحفظٍ ربُّكَ المتكبرُ (١)

فأنت ، أبا الخطـاب ، غيرَ مدافع
عليَّ أميرٌ ، ما مكثتَ ، مُؤمَّر (٢)

فبتُّ قرير العـينِ ، أُعطيتُ حاجتي
أقبّل فاهــا في الخــلاء فأكثر

فيا لكَ من ليـــلٍ تقاصَرَ طولُه
ومـــا كان ليلي قبل ذلك يقصر

ويا لك من مَلهىً هنـاك ، ومجلسٍ
لنـــا ، لم يكدّره علينـــا مكدّر

(١) أفرخ روعها : هدأت نفسها . كلاك : رعاك وحفظك .

(٢) أبو الخطاب: كنية عمر بن أبي ربيعة . غير مدافع: غير منازع. مؤمر : أي لك الأمر والسيادة عليَّ .

يمجُّ ذكي المسك منهـا مفلـجٌ
رقيق الحواشي ذو غروبٍ مؤشرُ (١)

تراه إذا تفـترُّ عنـه ، كأنـّه
حَصَى بَرَدٍ أو أقحوانٌ مُنوّرُ (٢)

وترنو بعينيهـا إليَّ ، كما رنا
إلى ربربٍ وسْطَ الخميـلة جُؤذر (٣)

فلمـا تقضّى الليـلُ إلا أقلّه
وكادت تَوالي نَجْمـه تتغـوّر (٤)

أشارت بأنّ الحيّ قد حـان منهمو
هبوبٌ ، ولكن موعدٌ لك «عزْور» (٥)

فما راعني إلا منادٍ : « ترحّلوا »
وقد لاح مفتوقٌ من الصبح أشقر (٦)

---

(١) يمج ذكي المسك ، أي يقذف بالرائحة الطيبة . مفلج : أي ثغر متباعد الأسنان ، وكانت العرب تعد هذا من جمال المرأة . ذو غروب : أي ممتلىء بالرحيق والرضاب . مؤشر: أي أسنانه محزّزة خلقة أو صنعة.

(٢) تفتر عنه : تبتسم .

(٣) الربرب: القطيع من بقر الوحش . الجؤذر: ولد البقرة الوحشية كانت العرب تشبه النساء به لجمال عينيه .

(٤) توالي نجمه : أي نجومه المتبقية . تتغور : تغيب .

(٥) عزور : اسم جبل بين مكة والمدينة .

(٦) مفتوق : أي منشق ، والمقصود نور الصباح .

فلمـا رأت من قد تنبّـه منهمو
وأيقاظَهم ، قالت : أشرْ كيف تأمرُ !

فقلت : أباديهم ، فإمـا أفوتُهم
وإمـا ينـال السيف ثأراً فيثأرُ [1]

تدبير الخلاص :

فقالت : أتحقيقاً لمـا قـال كاشحٌ
علينا ، وتصديقاً لما كان يُؤثَرُ ؟ [2]

فإن كان ما لا بدّ منـه ، فغيره
من الأمـرِ أدنى للخفـاء وأسترُ

أقصُّ على أختيَّ بدْءَ حديثنـا
ومـا ليَ من أن تعلمـا متأخَّرُ

لعلّهما أن تطلبـا لك مخرجـاً
وأن ترحُبا صدراً بما كنتُ أحصر [3]

فقامت كئيبـاً ليس في وجهها دمٌ
من الحزن تُذري عَبْرةً تتحدّرُ [4]

---

(١) أباديهم : أبدو رأتصدى لهم .
(٢) الكاشح : العدو المبغض . يؤثر : يروى ويقال .
(٣) أحصر : أضيق به .
(٤) تذري عبرة : تسكب دمعة .

فقامت إليها حُرَّتان عليهما
كِساءان من خزٍّ : دمقسٌ وأخضرُ

فقالت لأختيْها : « أعينا على فتىً
أتى زائراً ، والأمرُ للأمر يقدر »

فأقبلتا ، فارتاعتا ، ثم قالتا :
أقلّي عليكِ اللومَ ، فالخطبُ أيسر

فقالت لها الصغرى : سأعطيه مطرفي
ودرعي وهذا البُرْدَ إن كان يحذر[1]

يقوم فيمشي بيننا مُتنكراً
فلا سرُّنا يفشو ولا هو يظهر

فكان مِجنّي دونَ من كنت أتقي
ثلاث شخوص : كاعبانِ ومُعصر[2]

فلما أجزْنا ساحة الحي قلن لي :
ألم تتّقِ الأعداء والليلُ مقمر ؟

(١) المطرف : رداء من خزّ . الدرع : قميص المرأة . البرد : ثوب مخطط .

(٢) مجني : ترسي . الكاعبان : مثنى الكاعب ، وهي الفتاة في أول البلوغ . المعصر : المرأة الناضجة .

وقلن : أهذا دأبُكَ الدهرَ سادراً
أما تستحي أم ترعوي أم تفكرُ؟ [1]

إذا جئتَ فامنح طَرْفَ عينيك غيرنا
لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر [2]

التفاتة وتذكر :

فآخرُ عهدٍ لي بها حين أعرضَتْ
ولاح لها خدٌ نقيٌ ومحجر

سوى أنني قد قلتُ يا نُعْم ، قولةً
لها ، والعتاقُ الأرحبيّاتُ تزجر [3]

هنيئاً لأهلِ العامريةِ نشرها الـ
لذيذُ وريّاها التي أتذكر [4]

(١) دأبك : عادتك . سادراً : منصرفاً إلى الغواية غير مبال .
(٢) امنح طرف عينيك غيرنا : أي انظر إلى سوانا وغيرنا .
(٣) العتاق الأرحبيات : النياق الكريمة . تزجر : تساق وتدفع .
(٤) النشر : ريح فم المرأة . الريّا : الرائحة الذكية .

[المـؤنســة]

لمجنون ليلى (قيس بن الملوّح)

لا يُذكر الحبُّ في شعرنا العربي القديم إلا ويذكر معـه مجنون ليلى : هذا الاسمُ الأسطورة ، الذي صارَ عَلماً على نوع من الحب هو الحب العذري . وصار مثلاً للعشق الصادق الذي صرع صاحبه، وكان بذلك موضع أحاديث معاصريه ومن جاء بعدهم حتى يومنا هذا .

ويتفق المؤرخون جميعـاً على أن المجنون عاش في عصر الدولة الأموية ، واستمرت حياته حتى عام سبعين من الهجرة ، وأن اسمه الكامل هو قيس بن الملوّح من بني عامر بن صعصعة، وأن ليلى التي أحبها وهام بها وقضى بسبب حبها هي ليلى بنت مهدي بن سعد بن كعب بن ربيعة .. وأن كليهما نشأ في بيت ذي ثراء وافر وخير كثير ..

— ولكن ما هي — أولاً — حكاية هذا الحب العذري ؟

في رحاب الصحراء العربية وتحت خيامها ، وفي ظـلال

كثبانها ومنعطفات أوديتها ، نمـــا وترعرع حبُّ الفروسية الأصيل .. ولقـــد كانت البيئة العربية مهْداً لحب الفروسية منـــذ الجاهلية ، فالبادية أيقظت في وجـدان الشاعر العربي الحديث عن الحب الذي ينشر على الحياة الرتيبة فيها جواً من المرح والسرور وهو حبُّ أهل البادية الذي يملأ عليهم فراغ الحياة من حولهم ويبعث فيهم من نُبْل الشعور ما به يعيشون على ذكرى هذه العاطفة في النفس، ويبكون آثارها في أطلال ديار الحبيب .

وحياة البادية بما كانت تدفع إليه من شظفٍ وجهد ، وبما كانت تستلزمه من تعاون قَبَلي ، ساعدت على تكوين أخلاق وتقاليد تمكنت من روح العربي وسرت في نفسه وهي أخلاق الفروسية وتقاليدها : من البطولة في الحرب ، وحماية الجار ، والوفاء بالعهد .

فالشاعر العربي منـــذ الجاهلية فارس من قوم فرسان ، والفارس يكتمل فيه جانب البأس والشدّة في مواطن الهول بجانب الرقة والدماثة خضوعـــاً لسلطان العاطفة – ولهذا ، كان الشاعر العربي لا يبكي في شعره أمـام أخطر الأهوال ، ويتحاشى أن يمر بباله هذا البكاء خوفاً من أن تضيع مكانته في قومـــه ، ولكنه يبكي في يُسرٍ وطواعية إرضاءً لعاطفته واستجابة لها ، بل إنه يظهر أمام حبيبته في صورة الخاضع الذليل لسلطان حبه ، وإن كان الفارس القوي الذي يحميها ويخاطر في سبيلها .

ولم يلبث عامل البيئة والقبيلة أن تضافر مع عوامل أخرى كثيرة في خلق نوع جديد من الحب في حياة العربي ، يتجاوز كثيراً حب الفروسية وإن كان يتفق معه في صدق العاطفة ، ألا وهو الحب العذري ، وفيـــه يمتزج صدق العاطفة بصدق العقيدة .

نشأ هــذا النوع الجديد من الحب بعد ظهور الإســلام ، واتضحت سماته في عهد الأمويين ، بعد أن تغير الوضع القديم للجزيرة العربية في ذلك العهد، فانتقلت عاصمة الدولة الجديدة إلى دمشق ، وقوي النشاط السياسي في العراق، وبُعد الحجاز عن المشاركة في شئون الدولة ، وبخاصة بعد فشل ثورة عبد الله ابن الزبــير . واتجه شعراء الحجاز اتجاهــين مختلفين : الأول إغراق في اللهو ، في حياة مرحة غنية ، بما أفاء عليهم الإسلام من مغانم الفتوح، وخير من يمثل هذا الاتجاه عمر بن أبي ربيعة وأضرابه ، وأكثرهم من سكان المدن .

أمـــا الاتجاه الثاني فكان إلى التعبير عن الغزل العفّ ، ويغلب على سكان بادية الحجاز، لتمكّن التقاليد العربية منهم، وقوة سلطان المحافظة الخلقية بينهم ، والمحافظة تغلب دائماً على سكان القرى والبوادي – ويضعف سلطانها في المدن والعواصم. لذلك نمـــا الغزل العذري في أول نشأته في بادية الحجاز ونجد ، وكان بمثابة ردّ فعلٍ للغزل اللاهي في المدن ، فولــع شعراء البادية بتصوير عاطفتهم في ثوب جديــد عفّ ، يرضى

عنه الخلق ، ويوفق بين مطالب الجسم والروح معاً .

* * *

هـا هو ذا قيس بن الملوّح ، في مقتبل شبابه ، الفتى الغيور ، المعتد بنفسه ، ينشد حباً خالصاً له ، حتى إذا علق قلبه بليلى ، وأتاه الحب الذي كان يتطلع إليه ، حبٌ جارف قوي عارم ، يصفه هو بقوله :

نهاري نهارُ الناسِ ، حتى إذا بدا
لِيَ الليلُ هزتني إليكِ المضاجعُ
أقضّي نهاري بالحديثِ ، وبالمُنى
ويجمعني والهمّ بالليلِ جامعُ
لقد ثبتتْ فيَ القلبِ منك محبةٌ
كما ثبتت في الراحتين الأصابعُ (١)

ويغلب قيساً شعوره العنيف بحب ليلى ، فيُعبر عن حبه لها وهيامه بهـا في شعر حُلوٍ متدفق ، ولسوء حظه وحظ ليلى ، أن التقاليد العربية الجاهلية – التي لم يكن قضى عليها الاسلام – كانت تُحرم على من يشبب بفتاة أن يتزوج منها ، لأن التشبيب والغزل الصريح مظنة صلة بهـا قبل الزواج ، ومبعث ريبة في أن الزواج لم يتم بينهما إلا ستراً للعار .

---

(١) من الطريف ان هذه الأبيات نفسها ينسبها الرواة إلى مجنون آخر بالحب هو قيس لبنى ! ولجدها في قصيدته داخل هذا الكتاب .

وتحرمُ ليلى على قيس وتُجبر على الزواج من غـيره ، ولا يحتمل قيس وقع الكارثة ، فيهيم على وجهه ، ويختبل عقله ، وتدركه المنية وهو على هذه الحال .. شارداً ذاهل اللبّ فيما يشبه الجنون .

* * *

وقيس في شعره عن ليلى – وما أكثره – مؤمنٌ بأنـــه ضحية قدرٍ لا سبيل إلى الإفلات منه ، وأنه في معاناته لهذا الحب العنيف لا يتطلعُ إلى مثوبة كما أن الحب في إدراكه له صفة الخلود . فهو باقٍ بعد الموت وإلى يوم الحشر ، ويصاحب المحب العذري في الدار الآخرة ، ولذا فهو يتمنى الحشر لأنـه السبيل للقاء من يحب .

ومن بـين ديوان « مجنون ليلى » تستوقفنا قصيدته المسماة « المؤنسة » ليس لأنهـا كما تقول مصادر شعره أشهر قصائده فحسب ، ولا لأنها أطول قصيدة أنشدها وواظب عليها ولا لأنها – كما يقولون – كانت أقرب قصائده إلى قلبه ، لا يخلو بنفسه إلا وأنشدها ، ومن هنا كانت تسميتها بالمؤنسة لكثرة ما آنست المجنون بترديده لهـــا وإنشاده أبياتها مجتمعة أو متفرقة ، ليس لكلّ هذه الأسباب نتخيّر قصيدة المؤنسة من ديوان المجنون ، ولكن لأنهـــا نموذج رفيـع للشعر العذري ، الذي عبّر لدى أعلامـــه الكبار : جميل بثينة وكثير عزة ونصيب وقيس بن ذريـح – الذي يعرف باسم مجنون لبنى –

وابن الدُّمينة وأبي صخر الهُذلي وعروة بن حزام ، عبّر عن عاطفتهم المشبوبة التي لا تتطلع إلى مُتعٍ حسية ، فقد كانوا يسمون بهـا سُمواً تجلى في اعتزازهم بهـا والتضحية في سبيل الإبقاء عليها بما يستطيعون بذله من جهد وآلام ومعاناة حرمان بدافع الزهد في المحرمات وتقوى الله . لقد دفعهم الحرمان إلى التسامي ، ولا يتاح مثـل هـذا التسامي إلا للصفوة التي تؤمن بقيم روحية وخلقية تبلور بها عاطفتها ، فالحب العذري حبٌ عف لأنه حب حرَّم المتعة الجسدية ، وهو عاطفة صادقة لأنه يدوم ويستمر ويبقى على الرغم من الحرمان .. ثم هو بعد ذلك حب يتسامى فيه صاحبه، لأنه يحرص على القيم الإنسانية والمثل العليا، ولا يقف عند مجرَّد الحسرة والندم على الحرمان، من متع الحب ووصال الحبيب .

في ضوء هذه السطور نستطيع أن نتأمل قصيدة المؤنسة ، رائعة مجنون ليلى ، باعتبارها نموذجاً صادق التعبير والتصوير لحقيقة هـذا الحب العذري ، ولعمق مكابدة العاشق العذري وتساميه بعاطفته المشبوبة وشعوره الصادق ووجدِه المُبرح ، كما نستطيع أن نطالع من خلال أبياتها نسيجاً شعرياً محكماً ، غاية في الرقـة والعذوبة ، تغمره روح بدوية أصيلة تكسبه صدقاً ورصانـة ، وبُعداً عن التكلف وخُلواً من الصنعـة ، نسيجاً شعرياً يزخر بصدق العاطفة وروعة التصوير وحرارة الوجد والهيام .. لا يملك قارئـه إلا أن يتعاطف معه ويتأثر بما يحمله من لوعةٍ وحنينٍ وشجن وأسى .

استهلال وتذكر :

تذكرتُ ليلى ، والسنين الخواليا
وأيام لا نخشى على اللهو ناهيا

ويومٍ كظلّ الرمح ، قصّرْتُ ظلّه
بليلى ، فلهّاني ، وما كنت ناسيا

« بتمدين » لاحتْ نارُ ليلى ، وصُحبتي
«بذاتِ الغضى» تُزجي المطيَّ النواجيا (١)

فقال بصير القوم ألمحت كوكباً
بدا في سواد الليل فرداً يمانيا

فقلت له : بل نار ليلى توقّدت
« بعلّيا » ، تسامى ضوؤها ، فبدا ليا

فليت ركاب القوم لم تقطع الغَضَى
وليت « الغضى » ماشى الركاب لياليا

فيا ليل كم من حاجةٍ لي مهمةٍ
إذا جئتكم بالليل لم أدرِ ما هيا

خليليَّ إنْ لا تبكياني ألتمسْ
خليلاً إذا أنزفتُ دمعي بكى ليا

(١) تمدين وذات الغضى : اسمان لموضعين . المطيّ النواجي : جمع ناجية ، وهي النوق السريعة تنجو بمن ركبها .

فما أشرف الأيفاع إلا صبابةً
ولا أنشد الأشعار إلا تداويا [1]

وقد يجمعُ الله الشتيتين بعدما
يظنّان كل الظنّ أن لا تلاقيا [2]

سرّ المأساة :

لحى الله أقواماً يقولون إننا
وجدنا َطوالَ الدّهر للحبّ شافيا [3]

خليليّ ، لا والله ، لا أملكُ الذي
قضى الله في ليلى ، ولا ما قضى ليا

قضاها لغيري ، وابتلاني بحبها
فهلّا بشيء غير ليلى ابتلانيا

وخبّرتُماني أن « تيماء » منزلٌ
لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا [4]

---

(١) الأيفاع : جمع يفع ويفاع:كلُّ ما ارتفع من الأرض (التلال المشرفة) .

(٢) الشتيتان : اللذان ابتعد كل منهما عن صاحبه وتفرق بهما الشمل.

(٣) لحى الله : قبح الله ولعن . طوال الدهر : طول الدهر .

(٤) تيماء : اسم موضع .

فهذي شهور الصيف عنّا قد انقضت
فما للنوى ترمي بليلى المراميا [1]

فيا ربّ سوّ الحب بيني وبينها
يكون كفافاً لا عليّ ولا ليا

فما طلع النجمُ الذي يهتدى به
ولا الصبح إلا هيجا ذكرها ليا

ولا سرْتُ ميلاً من دمشق ، ولا بدا
« سهيل » لأهل الشام إلا بدا ليا [2]

ولا سُمّيتْ عندي لها من سَميّةٍ
من الناس إلا بلّ دمعي ردائيا

ولا هبّت الريح الجنوب لأرضها
من الليل إلا بتُّ للريح حانيا

فإن تمنعوا ليلى وتحموا بلادها
عليّ ، فلن تحموا عليّ القوافيا [3]

---

(١) النوى : البعاد .

(٢) سهيل : نجم بهيّ، طلوعه على بلاد العرب في أواخر القيظ .

(٣) تحموا بلادها عليّ: تمنعوا بلادها عليّ. فلن تحموا عليّ القوافيا : لن تستطيعوا منعي من التغني بها في شعري .

شهادة عند الله :

فأشهدُ عند الله أني أحبهـــا
فهذا لها عندي ، فما عندها ليا

قضى الله بالمعروف منهـــا لغيرنا
وبالشوق منّي والغرامِ قضى ليـــا

وإن الذي أملّت يا أم مالك
أشاب فويْـــدي واستهام فؤاديا[1]

أعدُّ الليالي ليلةً بعــــد ليلةٍ
وقـــد عشتُ دهراً لا أُعد اللياليا

وأخرج من بين البيوت لعلّني
أُحدّث عنك النفس بالليل خاليا

أراني إذا صليت يممت نحوها
بوجهي ، وإن كان المصلى ورائيا

ومـــا بي إشراك ولكن حبّها
وعُظْـمَ الجوى، أعيا الطبيب المداويا[2]

---

(١) أم مالك : كنية « ليلى » . فويدي : الفويد تصغير الفود وهو معظم شعر الرأس .

(٢) عظم الجوى : شدة الوجد والهيام .

أعلى درجات الحب :

أحب من الأسماء ما وافق اسمها
أو اشبهه ، أو كان منه مدانيا [1]

خليليّ « ليلى » أكبر « الحاج » والمنى
فمن لي بليلى ، أو فمن ذا لها بيا [2]

لعمري لقد أبكيتني يا حمامة الـ
ـعقيق وأبكيتِ العيون البواكيا [3]

خليليّ ما أرجو من العيش ، بعدما
أرى حاجتي تشرى ولا تشترى ليا [4]

وتُجرم ليلى ثم تزعم أنّنى
سلوت ، ولا يخفى على الناس ما بيا

فلم أرَ مثلينا خليلي صبابةٍ
أشدّ على رغم الأعادي تصافيا

خليلانِ لا نرجو اللقاء ، ولا نرى
خليلين إلاّ يرجوان التلاقيا

---

(١) مدانيا : متقارباً ومشابهاً .
(٢) الحاج : جمع حاجة ، أي المآرب والغايات .
(٣) العقيق : اسم موضع .
(٤) تشرى : تبـاع . أرى حاجتي : أي مآربي من الحياة وهو « ليلى » .

وإني لأستحييك أن تعرض المُنى
بوصْلِك أو أن تعرضي في المنى ليا

يقول أناس علّ مجنونَ عامر
يريدُ سلواً ، قلت أنـّى لما بيا [1]

إذا ما استطال الدهر يا أم مالك
فشأن المنايا القاضياتِ وشانيا [2]

إذا اكتحلت عيني بعينك لم تزلْ
بخيرٍ وجلـّت غمرةً عن فؤاديا [3]

فأنتِ التي إنْ شئت أشقيتِ عيشتي
وأنتِ التي إنْ شئتِ أشقيتِ باليا

وأنتِ التي ما من صديقٍ ولا عدا
يرى نِضْوَ ما أبقيتِ إلاّ رثى ليا [4]

أمضروبة ليلى على أن أزورهـا
ومُتخَذٌ ذنباً لهـا أن ترانيا

---

(١) أنـّى : أي كيف السبيل إلى ذلك !
(٢) وشانيا : وشأني ، سهّلت الهمزة لضرورة القافية .
(٣) جلت غمرة : أزاحت غما وأسى .
(٤) النضو : الإنسان المهزول والثوب البالي الممزق [يقصد بالنضو نفسه المحطمة الممزقة] .

إذا سرتُ في الأرض الفضاء رأيتني
أصانعُ رَحْلي أن يميل حياليا [١]

يميناً إذا كانت يميناً ، وإن تكن
شمالاً ينازعني الهوى عن شماليا

وإني لأستغشي وما بيَ نـَعْسة
لعل خيالاً منك يلقي خياليا [٢]

هي السحر إلا أن للسحر رُقيةً
وإني لا ألفي لها الدهر راقيا [٣]

إذا نحنُ أدلجنا وأنتِ أمامنا
كَفَى لمطايانا بذكراكِ هاديا [٤]

ذكَتْ نار شوقي في فؤادي فأصبحت
لها وهجٌ مستضرمٌ في فؤاديا [٥]

---

(١) الرحل : الركاب . أصانع رحلي : أجعل السائرين معي يتجهون الى حيث ليلى .

(٢) استغشى: استحضر النوم . نعْسة: نعاس ورغبة شديدة في النوم.

(٣) رقية : خرز ورقاية أو ما يستعان به على السحر من قوى غيبية متوهمة . لا ألفي : لا أجد . لا ألفي لها الدهر راقيـاً : أي لا أجد لنفسي شفاءً من حبها .

(٤) أدلجنا : سرنا في الليل المظلم .

(٥) ذكت : اشتعلت .

ألا أيُّها الركبُ اليمانون عرِّجوا
علينـا فقد أمسى هوانا يمانيـا [1]

أسائلكم هـل سال « نعمان » بعدنا
وحُبَّ إلينـا بطنُ نعمان واديـا [2]

ألا يا حمـامَيْ بطنِ نعمان ، هجتما
عليَّ الهـوى لمّـا تغنيتما ليـا

وأبكيتماني وسط صحبي ، ولم أكن
أبالي دموع العين لو كنتُ خاليـا

ويا أيهـا القُمْريَّتـانِ تجاوَبَـا
بلحنيكما ثم اسْجَعَـا علَّلانيـا [3]

فإن أنتما استطربتما ، أو أردتمـا
لِحاقاً بأطلال « الغَضَى » فاتبعانيا [4]

ألا ليت شعري ما لليلى ومـا ليـا
ومـا للصِّبـا بعد شيب علانيـا

---

(١) الركب اليمانون : المتجهون وجهة اليمن ، أي الجنوب .
(٢) نعمان : اسم موضع .
٣) القمريتان : الحمامتان المغرّدتان . اسجعا : غرّدا . عللانيا : أشفياني من وجدي وحبي المبرّح .
(٤) أطلال الغضى : أي الآثار المتبقية من المكان الذي كان يضمه ويجمعه مع ليلى، والذي شهد ذكرياتها معاً .

ألا أيها الواشي بليلى ، ألا ترى
إلى من تشيها أو بمن جئت واشيا

لئن ظعن الأحبابُ يا أم مالك
فما ظعن الحب الذي في فؤاديا [1]

نداء إلى ليلى :

مُعذّبتي ، لولاك ما كنت هائماً
أبيتُ سخين العينِ حرّان باكيا [2]

معذبتي ، قد طال وجدي وشفّني
هواكِ ، فيا للناس قلّ عزائيا [3]

وقائلةٍ وارَحْمَتا لشبابه
فقلت : أجل ، وارحمتا لشبابيا

وددتُ على طيب الحياة لو انّه
يُزادُ لليلى عمرها من حياتيا

ألا يا حمامات العراق أعنّني
على شجني ، وابكينَ مثل بكائيا

(١) ظعن : رحل .
(٢) سخين العين : عينه تبكي بشدة وحرقة . حرّان : لهفان .
(٣) شفّني : أضناني وأسقمني .

يقولون ليلى بالعراقِ مريضةٌ
فيا ليتني كنت الطبيبَ المداويا

تمرُّ الليالي والشهور ، ولا أرى
غرامي لها يزداد إلاّ تماديا [1]

دعاء أخير :

فيا ربّ إذ صيَّرتَ ليلى هي المُنى
فزنّي بعينيها كما زنتها ليا [2]

وإلاّ فبغّضها إليّ وأهلها
فإني بليلى قد لقيت الدواهيا [3]

على مثلِ ليلى يقتلُ المرء نفْسَهُ
وإن كنتُ من ليلى على اليأس طاويا [4]

خليليّ إنْ ضنّوا بليلى ، فقرّبا
ليَ النعشَ والأكفان ، واستغفرا ليا [5] .

---

(١) تمادياً : بلوغاً إلى مداه وإمعاناً في الأمر . ويروى : غرامي بها بدلاً من غرامي لها .

(٢) فزنّي بعينيها : جمّلني بعينيها .

(٣) الدواهي : المصائب المهلكة .

(٤) طاوياً : أي مخفياً أمري وحقيقة ما أكابده في نفسي .

(٥) ضنّوا بليلى : منعوها عليّ وحرموني منها . قرّبا لي النعش والأكفان : هيئوها وجهزوها .

(بثينـــة)

لجميل بن معمر

وإني لأرضى من بثينة بالذي
لو أبصره الواشي لقرت بلابله

بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمنى
وبالأمل المرجو قد خاب آمله

وبالنظرة العجلى ، وبالحول تنقضي
أواخره ، لا نلتقي ، وأوائله

كانت هذه أول أبيات أستمع إليها من شعر جميل ، وساعتها تمنيت لو أن بين يدي ديوان شعره كله ، أطالعه وأتأمله ، وأتوقف مع قصة هذا الفتى العذري – نسبة إلى قبيلة عذرة – الذي أصبح علماً على هذا اللون من الحب العف، يسمو بحرمانه وعفته وشفافيته ، ويرتفع عن شهوات النفس ومطالب الجسد ، ممتلىء الوجدان بالمعنى الروحي ..

في شعر جميل بثينة، نتعرف على أرقى نماذج الحب العذري وأصفاها وأصدقهـا وتراً وأشدهـا حرارة . هو شعر يمتلىء بشكاوي النفس وما يلاقيه المحب المتيم من تباريح الوجـد ، وقسوة البعد ، ومرارة الحرمان . ولكنه مع ذلك ، صادق اللوعة ، عف الضمير واللسان ، رصين التعبير ، غني القلب موفور الحس والشعور . ثم هو دائمـاً شاعر عاشق يرضى من محبوبته بالقليل ، بل بالأقل من القليل :

أيا ريح الشمالِ ، أما تريْني
أهيم ، وأنني بادي النحولِ
هبي لي نسمةً من ريح بَثْنٍ
ومُنّي بالهبوب على جميـلِ
وقولي : يا بثينة حسب نفسي
قليلك ، أو أقـل من القليلِ

وهو شاعر دائم الحديث عن بخل حبيبته ، لكنه حديث الراضي المستسلم ، لا يسخط ولا يغضب ولا يتمرد ، لا يهدد ولا يتوعد ولا يثور ، وإنما هو مُكتفٍ بمجرد الإشارة إلى بخل بثينة بكل ما من شأنه أن يملأ حياته نعيماً وبهجة، بخلها بالوصال ، باللقاء ، بريّ الصدي المتعطش :

ألا إنها ليست تجود لذي الهوى
بل البخل منها شيمة ، والخلائقُ

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا

سوى أن يقولوا إنني لك عاشقُ

نعم ، صدق الواشون ، أنت كريمة

عليّ ، وإن لم تصفُ منك الخلائقُ

وأقصى شكاواه أن يقول :

لقدَ خفت أن يغتالني الموت عنوةً

وفي النفس حاجات إليك كما هيا

وإني لتثنيني الحفيظة ، كلما

لقيتك يوما ، أن أبثّك ما بيا

ألم تعلمي يا عذْبةَ الريق أنني

أظلُّ ، إذا لم أسق ريقك ، صاديا

***

ويحدثنا التاريخ أن جميل بن عبد الله بن معمر العذري قد سبت فؤاده بثينة بنت حبأ بن ُجنّ بن ربيعة العذري ، فالشاعر وحبيبته ينتميان إلى شجرة واحدة في النسب ، ويقيمان معاً في مكان واحد هو وادي القرى — وهو موضع في الحجاز قريب من المدينة .

وكما حدث لقيس بن الملوّح وليلاه بعد أن ذاعت قصة

حبهما وتناقلت أخبارهما الركبان ، فحرمت عليه وزُوِّجت من غيره ، حدث لجميل وبثينة ، بعد أن ذاع شعره فيهما وهيامه بها ، وتحدث بها الناس في القبيلة وخارج القبيلة، حتى إذا جاء جميل إلى أبيها خاطباً رفضه أبوها خشية أن يقال إنه زوجها منه ستراً لعارها ..

وتُزوِّج بثينة إلى فتىً من عذرة : هو نبيه بن الأسود ، لكن زواجها لا يمنع جميلاً عنها ، فهو يزورها خفية في بيت زوجها ، ويقول فيها القصيدة بعد القصيدة ، وتساعده هي وتدبر له الأمر حيناً ثم تصدُّ عنه أحياناً ، وهو في الحالين مستطار اللب ، طائر العقل ، مسلوب القلب .

وتمضي الأيام ، ويدب اليأس في قلب جميل ، فيهاجر إلى مصر ، ويمرض فيها مرضه الأخير .. حتى إذا حضرته الوفاة كانت آخر كلماته من أجل بثينه حباً ، وتذكراً وتعلقاً ووفاء ، حتى الرمق الأخير.. ويموت جميل سنة اثنتين وثمانين من الهجرة ، ويبقى من بعده صوته الشعري المتوهج بالحرارة والصدق ، ينطق بعذريته وعفته وصادق حبه ومكابدته :

أرى كلَّ معشوقين غيري وغيرها
يلذّان في الدنيا ويغتبطان

وأمشي وتمشي في البلاد كأننا
أسيرانِ للأعداء مرتهنان

ضمنتُ لها ألا أهيم بغيرهـا

وقد وثقتْ مني بغير ضمانِ

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن لجميـل هي أشهر قصائده ، وأطولهـا ، وأكثرها تعبيراً عن فطرته العاشقة ، وأسلوبـه الشعري ، الذي يتفق في الكثير من جوانبه مع الطابـع العام لشعر العذريين ، أمثال قيس بن الملوّح (مجنون ليلى) وكثير عزة وقيس لبنى وعُروة بن حزام وأبي صخر الهذلي وغيرهم.. ويظل هذا الغزل العذري على لسان جميل وأضرابه عميق التأثير في النفس، شديد الإثارة للعاطفة ، وهو غزل لا يتوقف عند مجرد التشبيب بمحاسن المرأة ومفاتنها – على عادة الشعر العربي القديم – وإنما هو يتجاوز ذلك إلى الامتلاء الروحي بنفس الشاعر ومشاعرها وآلامها وآمالها ، والتعبير عن طبيعة العلاقة العفـّة الصادقة الحب التي تربطه بحبيبته التي وقف عليها قلبه دون سائر النساء ، وصارت وحدها ملهمته ومحور نجاواه ونداءاته ..

يقول جميل بن معمر :

ألا ليت ريعان الشباب جديدُ

ودهراً تولى – يا بثين – يعودُ [١]

---

(١) ريعان الشباب : أوله وأفضله ونضارته .

فنبقى كما كنا نكون ، وأنتمو
قريب ، وإذ ما تبذلين زهيدُ

وما أنسى م الأشياء لا أنسى قولها
وقد قرَّبت نِضْوى : أمصر تريد ؟ [1]

ولا قولها : لولا العيون التي ترى
لزرتك ، فاعذرني ، فدتك جدود

خليليّ ، ما ألقى من الوجد باطنٌ
ودمعي – بما أخفي الغداة – شهيد

ألا قد أرى ، واللهِ ، أن رُبَّ عبرة
إذا الدار شطّت بيننا ستزيد [2]

إذا قلت : ما بي يا بثينة قاتلي
من الحبّ ، قالت : ثابتٌ ويزيدُ

وإن قلت : ردّي بعض عقلي أعش به !
تولّت وقالت : ذاك منك بعيد

فلا أنا مردودٌ بما جئت طالباً
ولا حبّها فيما يبيد يبيد [3]

---

(١) نضوي : النضو : الهزيل ، والمقصود به هنا : ناقتي الهزيلة م الأشياء : من الأشياء .

(٢) عبرة : دمعة . شطت : بعدت وتناءت .

(٣) يبيد : يفنى ويزول .

جزتك الجوازي يا بثين سلامة
إذا ما خليل بان وهو حميد [1]

وقلت لها : بيني وبينك فاعلمي
من الله ميثاقٌ له وعهود

وقد كان حُبّيكم طريفاً وتالداً
وما الحبُّ إلا طارفٌ وتليد [2]

وإن عَروض الوصل بيني وبينها
وإن سهّلته بالمنى لكؤود [3]

وأفنيت عمري بانتظاري وعدها
وأبليت فيها الدهر وهو جديد

ويحسب نسوانٌ من الجهل أنني
إذا جئت إياهن كنت أريدُ

فأقسم طرفي بينهنّ فيستوي
وفي الصدر بوْنٌ بينهن بعيدُ [4]

---

(١) الجوازي : جمع جازية ، وهي المكافأة . بان : رحل .
(٢) طارف وتليد : حديث وقديم .
(٣) العروض : الطريق الوعر في عرض الجبل يكتنفه مضيق ، والمقصود به هنا : واقع الحال بينه وبين حبيبته في الوصال واللقاء . كؤود : الشاق ، الصعب .
(٤) أقسم طرفي : أوزع النظر .

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بوادي القرى ، إني إذن لسعيد [1]

وهل أهبطن أرضاً تظل رياحها
لها بالثنايا القاويات وئيد [2]

وهل ألقينْ « سعدى » من الدهر مرةً
وما رثَّ من حبل الصفاء جديد [3]

وقد تلتقي الأشتات بعد تفرقٍ
وقد تدرك الحاجات وهي بعيد [4]

إذا جئتها يوماً من الدهر ، زائراً
تعرَّض منفوض اليدين صدودُ [5]

يصدُّ ويغضي عن هواي ويجتني
ذنوباً عليها ، إنه لعنود

---

(١) وادي القرى : اسم موضع قرب المدينة ، كان يقيم فيه قوم جميل وبثينة .

(٢) الثنايا القاويات : الطرق الخالية . وئيد : صوت عال شديد .

(٣) رث : قدم وبلي .

(٤) الأشتات : جمع شتيت ، أي المتفرق والمتبعد .

(٥) المنفوض : من أصابته رعدة الحمى . والرعدة هنا بسبب الغضب والغيرة ، والمقصود به زوج بثينة .

فأصرمها خوفاً ، كأنّي مجانب
ويغفل عنا مرةً ، فنعودُ [(١)]

ومن يُعْطَ في الدنيا قريناً كمثلها
فذلك في عيش الحياة رشيد [(٢)]

يموت الهوى مني إذا ما لقيتها
ويحيا إذا فارقتها فيعود

يقولون : جاهد يا جميل بغزوة
وأيّ جهاد غيرهن أريد !

لكلٍّ حديث عندهن بشاشة
وكل قتيل عندهنّ شهيد

وأحسن أيامي ، وأبهج عيشتي
إذا هيج بي يوماً وهن قعود

تذكرت ليلى فالفؤاد عميد
وشطّت نواها فالمزار بعيد [(٣)]

---

(١) أصرمها : أجافيها وأقاطعها . مجانب : مبتعد لا غاية له فيها .

(٢) قريناً : زوجة .

(٣) العميد : العاشق المتيم الذي هدّه العشق . شطت نواها : بعدت بها المسافات .

علقت الهوى منهـا وليداً ، فلم يزل

إلى اليوم ينمي حبهـا ويزيدُ [1]

فمـــا ذكر الخلان إلا ذكرتهـا

ولا البخل إلا قلتُ سوف تجــود

إذا فكرت قالت : قد ادركتُ ودّه

وما ضرّني بخلي ، فكيف أجود [2]

فلو تكشفُ الأشياء ، صودف تحتها

لبثنةَ حبٌ طـــارف وتليد

ألم تعلمي يا أم ذي الودع أنـــني

أضاحك ذكراكم وأنتِ صلود ! [3]

---

(١) علقت الهوى : أصابني الهوى وتملكني . ينمي : يزيد ويتضاعف .

(٢) قد أدركت وده : قد استحوذت على مودته وحبه رغم بخلها .

(٣) الودع : خرزات بيض تستخرج من البحر تشقّ كالنواة وتعلق في أعنـــاق الأطفال لدفع الحسد ، والمقصود بأم ذي الودع : بثينة . صلود : بخيلة جداً .

فهل ألقين فرداً بثينة ليـلةً
تجود لنا من ودّها ونجود [1]

ومن كان في حبي بثينة يمتري
« فبرقاءُ ذي ضالٍ » عليّ شهيدُ [2]

---

(١) فرداً : منفرداً ، بعيداً عن الناس .

(٢) يمتري : يشك . برقاء ذي ضال : اسم موضع كان جميل وبثينة يلتقيان فيه بعيداً عن الرقباء .

[لُبنــى] !

لقيس بن ذَريح

يقول عنه ابن فضل الله العمري في كتابـــه : « مسالك الأبصار » :

عاشق شفه التبريح ، ووامق لم يشفه التصريح ، تيمــه حُب لُبنى وهيمه هواها فمـا أغنى ، أصبته حسنا وسبّته بمحيا كالبدر أو أسنى ، جلبت له حزناً طويـلاً ، وجنت له من روض حسنها مرعى وبيلا ، ، تزوج بها وهو بها كلِف ، وبحبّها شغف ، ثم أدمن مجالستها وأدمن مؤانستها ، وولــع بتأمل محاسنها ، وتنقل نظره في رؤية أحاسنها ، حتى طبـع هواها على قلبه ، وطلع أنينه بما قطع من خلبه، وألف لأجلها ظل الخباء لا يفارقه ، وأنكر فضل الحياء كأنه مـــا دبّت بخدّه شقائقه .

فعزّ هذا على أبيه ، وطالبه بطلاقها فأبى، وأبى أبوه إلا أن يذيقه مرارة فراقها على صبي . ثم لمـــا رأى إصراره على

حب لبنى واستمراره على حاله المعني ، أصحر أبوه وآلى ألا يستظل ببيت حتى يلقي حبها على غاربها ، ويلحق خطاهـــا ببيت أقاربها ، وكان أوان حرّ تلفح هواجره وينفح بالسموم ناجره .

فأقبل كهول الحي على قيس يلومونه على حقوق أبيــه ، ويخوفونه عقوق أمره في امرأة تصبيه ، ثم ما برحوا به حتى طلقها . فما انطلقت إلا هي ولـُبه ، وفارقها فمـــا فارقته إلا ومعها قلبه . ووجد بهـــا وجداً أقلق مضاجعه ، وقلقل في المآقي مدامعه ، وزوجه أبوه بامرأة غيرها ليسلو لبنى ويخلو معها أياماً ينسى بها لياليه الحسنى ، فما وقعت الثانيـــة منه موقعاً ، ولا وجدت في قلبه موضعاً ، فبدّت فراقها ، وبتّ طلاقها .

ثمّ الناس في قيس على قسمين : فمنهم من زعم أنه ردّها، ونعم بهـــا ليل التمام يفترش بردها ، ومنهم – وهم الجمهور – على أنه بقي بخباله ، صريعَ هوًى ما أفاق ، وقريعَ جوًى مُنِيَ من أحبابه بالفراق . » .

* * *

هــذه هي القصة ، قصة قيس ولبنى كما جاءت في كتب التراث العربي القديم ..

وقيس هذا هو قيس بن ذَريح بن الحباب بن سنّة ..

ينتهي نسبه إلى خزيمة من عرب الشمال .. ويقولون إنـه من أعراب الحجاز، وإن قوم قيس كانوا ينزلون في ظاهر المدينة، أما هو وأبوه فكانا من حاضرتها .. ويبدو أنـه كان كثير التنقل بين بوادي المدينة حيث يقيم أهله وبوادي مكة حيث يقيم أهل أمه من خزاعة .

أما لبنى هذه التي تغنى بها قيس ، وصار منسوباً إليها ، فهي لـُبنى بنت الحباب أم معمر ، من بني كعب من خزاعة ، يصفونها بأنها كانت مديدة القامة ، يخالط سواد عينيها زرقة، حلوة المنظر والكلام ، وقالوا أيضاً إنها كانت بهية الطلعة ، عذبة الكلام ، سهلة المنطق . وتبدأ القصة على هذه الصورة :

في إحـــدى زورات قيس لأخواله ، اشتدّ الحر فشعر بالظمأ ، فوقف على خيمة والرجال غائبون ، فطلب مـاء ، فبرزت له لبنى فسقته وأعجب بها ، وطلبت إليه أن يستريح عندهم حتى تخفّ وطأة القيظ ، فلباها وتحادثا ، فملكت عليه فؤاده، وملك عليها فؤادها، وقدم أبوها فرحّب به ونحرَ له، واحتفى ، وأكرمـــه . وانصرف قيس وقد غلبه الهوى ، فأنطقه شعراً رواه الرواة ، وشاع في المجالس .

ويتزوج قيس من لبنى ، ويجتمع شمل الحبيبين ، ويقيمان أمداً في ظل سعادة وارفة ، وهناء متصل ..

لكن قيساً – وحيـد والديه الثريين – ينسيه حبه للبنى وزواجه منها كل شيء آخر في حياته .. فتغضب أمه لما ترى

من اغتصاب امرأةٍ أخرى له ، فتكيد لزوجته ، وتتفنن في الإيقاع بينهما .. خاصة وأن لبنى لم تنجب من قيس . ويستمر الحال هكذا عشر سنوات .

ثم يجتمع عليه أبوه وقومه ناصحين له بالزواج من إحدى بنات عمه ، لعل الله أن يهب له ولداً يرث ثروة الأسرة من بعده .. ولا يستجيب لهم قيس ، فيجيئه القوم ثانية من كل ناحية ، ويعظمون عليه الأمر ، إذ كيف يفعل هذا بأبيه وأمه ؟ ولئن مات أبوه على هذه الحال فهو مُعين وشريك في قتله .

ويصطرع في نفس قيس برُّه بوالديه وحبه لزوجته ، ولا تحتمل نفسه هذا الموقف الصعب ، وأخيراً ينهار في لحظة ضعف فيرضخ لطلب أبويه وإلحاح قومه ، ويطلّق لبنى .

ثم لا يلبث قيس أن يستشعر وقع الفجيعة ، فجيعته في حبه ، ويحس بالفراغ الذي خلفته لبنى في حياته ، واللوعة التي ملكت كل جوانحه ، فينطلق لسانه بالأشعار الباكية .

* * *

نحن إذن أمام واحدة من قصص الحب العذري ، بطلاها عاشا في مستهل القرن الأول الهجري – فالروايات تذكر لنا أن قيساً وُلد بين عامي أربعة وستة للهجرة – واختلطت قصتهما – بما تمتلىء به من حكايا وأشعار – ببقية قصص هذا الحب ، خاصة بقصة قيس بن الملوّح وليلاه – المعروف باسم

مجنون ليلى – وأصبح الناس ينسبون شعر هـذا إلى ذاك ، ما دام كله شعراً عذرياً ، واضح الخصائص والسمات ، بل وينسبون القطعة الواحدة إلى شعراء متعددين .. لهذا فنحن نجد في ديوان قيس لبنى أربعاً وعشرين مقطوعة يتنازعها مع مجنون ليلى ، فضلاً عن قصائد أخرى يتنازعها مع جميل بثينة وابن الدُّمينة وكثير عزّة وعروة بن حزام ..

وفي شعر قيس بن ذريح ما نجده في شعر العذريين من رقة وجزالة ، وعاطفة صادقة مشبوبة .. وتعبير جميل آسر . يقول عنه القدماء : « ونظمه في الذروة العليا رقةً وحلاوة وجزالة » . وأطول قصائده وأشهرها هي قصيدته العينية ، التي نطالع فيها صورة صادقة لحبه العميق للبنى ، متضمنة ندمه ولوعته بعد طلاقها منه وفراقها له ، ولكن هيهات ينفع الندم ، إن خلاصه الوحيد في البكاء ، وبث شجونه ولوعة هيامه ، خلال أبيات يرسلها وقد حملت زفراتٍ من سعير قلبه وحرارة معاناته ..

يقول قيس بن ذريح :

عفا سرِفٌ من أهله فسُراوِعُ
فجنبا أريكٍ فالتلاعُ الدّوافعُ [1]

---

(١) سرف وسراوع : موضعان بالقرب من مكة . أريك : واد في بلاد بني مرة . التلاع : جمع تلعة ، وهي مجرى الماء من أعلى الوادي . الدوافع : التي تدفع وتهبط الى الوادي .

لعلَّ لُبَيْنى أن يُحَمَّ لقاؤهـا

ببعض البلاد ، إنَّ مـا حُمَّ واقعُ [1]

بِجِـزْعٍ من الوادي خلا عن أنيسِه

عفـا وتخطَّتْهُ العيون الخوادع [2]

ولما بدا منهـا الفراق ، كما بدا

بظهرِ الصَّفا الصلدِ الشقوق الشوائعُ [3]

تمنَّيتَ أن تلقى لُبينـاك ، والمنى

تعاصيك أحيانـاً ، وحينـاً تطاوع

ومـا من حبيبٍ وامقٍ لحبيبـه

ولا ذي هوىً إلا له الدهر فاجعُ [4]

وطـار غراب البين وانشقَّت العصا

ببيْنٍ كما شقَّ الأديم الصوانع [5]

---

(١) حُمَّ : قدر وُقضي .

(٢) الجزع : جانب الوادي ومنعطفه.عفا : درس وزال . الخوادع : التي لا تنام .

(٣) الصفا الصلد : الحجر الصلب الضخم . الشوائع : المفترقة أو الظاهرة .

(٤) وامق : شديد الحب .

(٥) البين : الفراق . انشقت العصا : تفرّق الأمر . الأديم : وجه الأرض . الصوانع : جمع صانع .

ألا يا غراب البين قد طرت بالذي
أحاذر من لُبنى ، فهل أنت واقع !

وإنك لو أبلغتهــا قيلَكَ : اسلمي
طَوَتْ حزناً وارفضَّ منها المدامع [١]

أتبكي على لبنى ، وأنت تركتهــا
وكنتَ كآتٍ غيَّه وهو طائع ؟ [٢]

فلا تبكِيَنْ في إثر شيءٍ ندامــةً
اذا نزعتْـــهُ من يديك النوازع

فليس لأمــرٍ حــاول الله جَمْعَــه
مُشِتٌ ، ولا ما فرّق الله جامع [٣]

طمعْتَ بلبنى أن تَرِيعَ ، وإنما
تُقطّع أعناق الرجــال المطامعُ [٤]

كأنك لم تقنع اذا لم تُلاقِهــا
وإن تلْقهــا فالقلب راضٍ وقانــع

(١) قيلك : قولك . ارفضّ : سال وتفرّق .
(٢) الغي : الضلال والخيبة .
(٣) مُشتّ : مفرّق .
(٤) تريع : ترجع .

فيا قلبُ خبّرني إذا شطّت النوى
بلبنى وصدّت عنك ما أنت صانع [1]

أتصبرُ للبينِ المُشِتّ مع الجوى
أم أنت امرؤٌ ناسي الحياء فجازع

فما أنا إن بانت لُبينى بهاجعٍ
إذا ما استقلّت بالنيام المضاجع

وكيف ينام المرء مستشعر الجوى
ضجيع الأسى فيه نِكاسٌ روادع [2]

فلا خيرَ في الدنيا اذا لم تُواتِنا
لُبينى ، ولم يجمع لنا الشمل جامع

أليست لبينى تحت سقفٍ يُكِنها
وإيّاي ، هذا إن نأت لي نافع [3]

ويَلبسُنا الليل البهيمُ إذا دجا
ونبصر ضوء الصبح والفجرُ ساطع [4]

---

(١) شطت : بعدت .
(٢) النكاس : جمع نكس وهو المرض المعاود الذي لا يبرح . الروادع: جمع رادعة وهي التي تردعه (تمنعه) عن الحركة والتصرف .
(٣) يكنها : يجمعها ويؤويها . السقف : المقصود به هنا هو السماء .
(٤) دجا : أظلم .

تطا تحت رجليها بساطـاً وبعضُه

أطاهُ برجلي ، ليس يطويه مانعُ[1]

وأفرح إن أمست بخير وإن يكن

بها الحدَث العادي ترعني الروائع[2]

كأنك بدع لم ترَ الناس قبلهـا

ولم يطـّلعك الدهر فيمن يطالع

فقـد كنت أبكي والنـّوى مطمئنة

بنا وبكم من علم مـا البين صانع

وأهجركم هجر البغيض ، وحبكم

على كبدي منـه كلومٌ صوادع[3]

فواكبدي من شدة الشوق والأسى

وواكبدي إني إلى الله راجـع

وأعجل للإشفاق حـتى يشفـّني

مخافةَ وَشْكِ البين والشمل جامع[4]

---

(١) تطا : تطأ (وخففت الهمزة) .

(٢) الحدث العادي : الخطب الجسيم النازل بها . ترعني : تفزعني . الروائع : المفزعات .

(٣) الكلوم : جمع كلم ، الجرح . الصوادع : المزلزلة المؤثرة .

(٤) يشفـّني : يضليني . وشك البين : قرب الفراق .

وأعمد للأرض التي من ورائكم
لترجعني يوماً إليك الرواجع

فيا قلب صبراً واعترافاً لما ترى
ويا حبها قع بالذي أنت واقع

لعمري لمن أمسى وأنت ضجيعة
من الناس ما اختيرت عليه المضاجع[1]

ألا تلك لبنى قد تراخى مزارها
وللبين غمّ ما يزال ينازع

إذا لم يكن إلا الجوى ، فكفى به
جوى حُرَقٍ قد ضُمّنتها الأضالع

أبائنة لُبنى ولم تقطع المدى
بوصلٍ ولا صَرمٍ فييأس طامع[2]

يظل نهارُ الوالهينَ نهاره
وتهدنه في النائمين المضاجع[3]

---

(١) ضجيعة : زوجته وحليلته . لما اختيرت عليه : ما فضلت عليه.

(٢) الصرم : القطيعة والفراق .

(٣) الوالهين : جمع واله ، الشديد الحزن والوجد حتى ليكاد يفقد عقله . تهدنه : تسكنه وتهدئه .

سواءٌ ، فليلي من نهاري وإنما
تقسم بين الهالكين المصارع [1]

ولولا رجاء القلب أن تسعف النوى
لما حملته بينهن الأضالع

له وَجَبَاتٌ إثر لُبنى ، كأنها
شقائق برقٍ في السحاب لوامع [2]

نهاري نهار الناس حتى إذا دَجَا
ليَ الليل هزّتني إليكِ المضاجع

أُقضّي نهاري بالحديث وبالمنى
ويجمعُني والهمّ بالليل جامعُ

لقد ثبتتْ في القلب منك مودّة
كما ثبَتت في الراحتين الأصابع [3]

أبى الله أن يلقى الرشاد مُتيّمٌ
ألا كلُّ أمر حُمّ لا بدّ واقع [4]

---

(١) سواء : أي سواء عليّ ليلي ونهاري فهما متشابهان في وقعهما عليّ.

(٢) وجبات : خفقات ، شقائق برق : موجات من البرق المتتابع .

(٣) الراحتان : اليدان . [هذا البيت والبيتان السابقان له ينسبها الرواة إلى مجنون ليلى أيضاً] .

(٤) حُمّ : قُدّر ونزل .

هما برّحا بي مُعولَيْنِ كلاهما

فؤادٌ وعينٌ جفنها – الدهر – دامع[1]

إذا نحن أنفدْنا البكاء عَشيَّةً

فموعدُنا قَرْنٌ من الشمس طالع[2]

وللحبِّ آياتٌ تبيّنُ بالفتى

شحوبٌ وتعرى من يديه الأشاجع[3]

وما كلُّ ما منَّتْكَ نفسُكَ خالياً

تُلاقِي ، ولا كلُّ الهوى أنت تابعُ

تداعت له الأحزانُ من كلّ وجهة

فحنّ كما حنّ الظؤار السواجع[4]

وجانب قُرْب الناس يخلو بهمه

وعاوده فيها هُيام مراجعُ

---

(١) برّحا بي : أتعباني وأجهداني . الدّهْرَ : طول الدهر .

(٢) أنفدناه : أنهيناه ولم نترك منه شيئاً . قرن من الشمس : شروق الشمس في صباح اليوم التالي .

(٣) تبيّن : تظهر . الأشاجع : أصول الأصابع التي تتصل بالأعصاب أو هي عروق ظاهر الكف . وتعرى الأشاجع : أي تهزل اليدان ويذهب ما عليهما من لحم .

(٤) تداعت : أقبلت وتجمعت . الظؤار : النياق التي تعطف على ولد غيرها . السواجع : التي يمور بها الحنين .

أراكَ اجتنبتَ الحيَّ من غيرِ بِغْضةٍ
ولو شئتَ لم تجنح إليكَ الأصابعُ [1]

كأنَّ بلادَ اللهِ ما لم تكن بها
ـ وإن كان فيها الخَلْقُ ـ قفرٌ بلاقعُ [2]

ألا إنما أبكي لما هو واقعٌ
وهل جزعٌ من وشكِ بينِكَ نافعُ ؟

أحالَ عليَّ الدهرُ من كلِّ جانبٍ
ودامت فلم تبرح عليَّ الفجائعُ [3]

فمن كان محزوناً غداً لفراقنا
فمِلآنَ فليبكِ لما هو واقعُ [4]

---

(١) بغضة : كراهية وعداوة . تجنح : تميل .
(٢) بلاقع : جمع بلقع وهي الأرض الخراب القفر .
(٣) أحال عليَّ : دفع بالمصائب وصرفها اليَّ .
(٤) فملآن : فمن الآن .

عـــزّة..

لكُثـَـيِّرعــزّة

يُزهّدني في حبِّ عزّةَ معشر
قلوبهمو فيهـــا مُخالفـــة قلبي

فقلت دعوا قلبي وما اختـــار وارتضى
فبالقلبِ لا بالعينِ يُبصر ذو اللبِّ

ومـــا تُبصر العينان في موضع الهوى
ولا تسمع الأذنانِ إلاّ من القلبِ

* * *

هو كُثيّر بن عبد الرحمن الخُزاعي ، شاعر حِجازيّ من شعراء العصر الأموي ، ويُكْنَى أبا صخر،اشتهر بكثيّرعزة نسبة إلى محبوبته عزّة التي قال فيهـا أكثر شعره في الغزل والتشبيب ، والعزّة في اللغة هي بنت الظبية ، أما عزة هذه فهي بنت جميل بن حفص وكُنيتها أم عمرو وكان يطلق عليها أيضاً الحاجبيّة نسبة إلى جدها الأعلى .

ويقول لنـا رواة الشعر العربي القديم إن كثير عزة أحد عشاق العرب البارزين ، وانه شاعر أهل الحجـاز ، وإنهم ليقدمونه على كثير من شعراء أهل زمانه حتى لقد قال بعضهم إنه أشعر أهل الإسلام ...

ثم يقدمون له صورة وصفية طريفـة ، فهو قصير شديد القصر ومن هنا كانت تسميته بكثير على سبيل التصغير . يقول الوقاصي : رأيت كثيّراً يطوف بالبيت فمن حدّثك أنه يزيد على ثلاثة أشبـار فلا تصدقه ، وكان كثيّر إذا دخل على عبد الملك بن مروان – الخليفة الأموي – يقول له : طأطىء رأسك حتى لا يصيبه السقف ..

ويصرح كثير نفسه بهذا القصر في شعره فيقول :

وإن أكُ قصْراً في الرجـال فإنني
إذا حـلَّ أمرٌ ساحتي لطويـل

ثم يضيفون أنه كثير الاعتداد بنفسه ، كثير العجب والزهو والخيلاء ، حتى إن النـاس كانوا يجيئونه من الوراء فيأخذون رداءه فلا يلتفت من الكِبر ويمضي في قميص ... وإنه كان يؤمن بالرجعة والتناسخ .

وكان خلفاء بني أمية–وفي مقدمتهم عبد الملك بن مروان– شديدي الإعجاب بشعره ، خاصة مدائحه . يروون أنه قال يوماً لعبد الملك : كيف ترى شعري يا أمير المؤمنين ؟

قال : أراه يسبق السحر ويغلب الشعر ..

وقال له عبد الملك يوماً : من أشعر الناس يا أبا صخر ؟

قال كثيّر : من يروي أمير المؤمنين شعره .

فقال عبد الملك : إنك لمنهم ..

ويتفنن الرواة في صياغة أخباره وقصصه مع محبوبته عزة، وكيف بدأ تعشُّقه لها ، فيقولون إنه مرّ ذات يوم بنسوة من بني حمزة ومعه قطيع أغنام ، فأرسلن إليه «عزة» وهي بعد صغيرة فقالت له : تقول لك النسوة بعنا كبشاً من هذه الغنم ، وانسئنا بثمنه إلى أن ترجع — أي أمهلنا في دفع ثمنه حتى تعود — فأعطاها كثير كبشاً ، ووقعت هي من قلبه موقعاً عظيماً ، فلما رجع جاءته امرأة منهن بدراهمه فقال لها : وأين الصبية التي أخذت مني الكبش؟ قالت : وما تصنع بها؟ هذه دراهمك ، فقال : لا آخذ دراهمي إلا ممن دفعت إليه : وانصرف وهو ينشد :

قضى كلُّ ذي دينٍ فوفّى غريمه
وعزّةُ ممطولٌ مُعنّى غريمُها

فقلن له : أبيْت إلا عزّة ! وأبرزنها له وهي كارهة . ثم إنها أحبته بعد ذلك أشدّ من حبه لها .

ويحلو للقدماء أيضاً أن يقارنوا بينه وبين جميل بن معمر صاحب بثينة . فيقولون إن كثيراً يتقوّل ولم يكن عاشقاً أما

جميل فكان صادق الصبابة والعشق ، وإن جميلاً كان يصدق في حبه أما كثير فيكذب في حبه ..

ثم يضيفون أن عدد النساء اللواتي شيّعنه عند موته كان أكثر من عدد الرجال ، وكن يبكينه ويذكرن عزّة في ندبهن .. وكانت وفاته في خلافة يزيد بن عبد الملك سنة خمس ومائة من الهجرة ..

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن من شعر كثير هي أطول قصائده على الإطلاق ، وأشهرها ، وأكثرها ذيوعاً ، والقدماء يعدونها من منتخباته ، والغريب أن كثيراً يلتزم في ختام أبيات هذه القصيدة حرف اللام قبل حرف الروي وهو التاء ، فجعل لها قافية مزدوجة من اللام والتاء ، فهي إذن صورة متقدمة لشعر اللزوميات الذي عرفناه بعد ذلك عند أبي العلاء المعرّي . ولهذه القصيده – الناطقة بفن كثيّر الشعري ، وأسلوبه السهل الممتنع في صياغة المعنى الشعري والصورة الشعرية – قصة طريفة ، من الطريف أن نستمع إليها .

روي أن عبد الملك بن مروان سأل كثير عزة عن أعجب خبرٍ له مع عزة فقال : يا أمير المؤمنين حججت ذات سنة وحج زوج عزة معها ولم يعلم أحدنا بصاحبه ، فلما كنا ببعض الطريق أمرها زوجها بابتياع سمْنٍ تصلح به طعاماً لرفقته فجعلت تدور بالخيام خيمة خيمة حتى دخلت إليّ وهي لا تعلم أنها

خيمتي وكنت أبري سهماً ، فلما رأيتهـــا جعلت أبري لحمي وأنظر إليها حتى بريت ذراعي وأنا لا أعلم به والدم يجري ، فلمـــا علمت ذلك دخلت إليّ فأمسكت يدي وجعلت تمسح الدم بثوبهـا ، وكان عندي نحيء سمن (وعاء سمن) فحلفت لتأخذه فأخذته ، وجاء زوجها فلما رأى الدم سألها عن خبره فكاتمته حتى حلف عليها لتصدقنه فصدقتـــه فضربها وحلف عليها لتشتمني في وجهـه فوقفت عليّ وقالت لي وهي تبكي : يا ابن (....) فأنشدت :

خليليّ ، هذا ربعُ عزة ، فاعقلا
قلوصيكما ، ثم ابكيا حيث حلتِ [1]

ومسَّا ترابا كان قـد مسّ جلدها
وبيتـا وظلّا حيث باتت وظلتِ

ولا تيأسا أن يمحوَ اللهُ عنكما
ذنوبـاً إذا صليتما حيث صلّتِ

وما كنت أدري قبل عزةَ ما البكا
ولا موجعاتِ القلب حتى تولّتِ [2]

---

(١) ربع عزة : موضع دارها . اعقلا : شدا واربطا . قلوصيكما : القلوص الناقة الشابة النشيطة .

(٢) تولت : ذهبت وأدبرت .

وقد حلفت جهداً بما نحرتْ له

قريشٌ غداة « المأزمينْ ِ » وصلّتِ [1]

أناديكِ ما حجَّ الحجيج وكبَّرت

« بفيفا غزال ٍ » رفقة وأهلَّت [2]

وما كبّرت من فوق « ركبة » رفقة

ومن «ذي غزال» أشعرت واستهلت [3]

وكانت لقطع الحبل بيني وبينها

كناذرة نذراً ، فأوفت وحلت [4]

فقلت لها : يا عزُّ كلُّ مصيبةٍ

إذا وطّنت يوماً لها النفس ذلت [5]

---

(١) المأزمان : موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة (بين عرفة والمزدلفة) وهو شعب بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عرفة وبه المسجد الذي يجمع فيه الإمام بين صلاتي الظهر والعصر. حلفت جهداً : أي بالغت في اليمين .

(٢) بفيفا غزال : أي بفيفاء غزال ، موضع بمكة حيث ينزل الناس منها إلى الأبطح . أهلّت : رفعت صوتها بالتلبية . ما حج الحجيج : أي طيلة مدة حج الحجيج .

(٣) ركبة : واد بين مكة والطائف . رفقه : رفاق ، جمع رفيق . أشعرت : جعلت لنفسها شعاراً .. وشعار القوم علامتهم في السفر .

(٤) حلّت : أوفت بعهدها وخرجت من ميثاق كان عليها .

(٥) وطن نفسه على الشيء : أي حملها عليه حتى تذل له وتخضع .

ولم يلق إنسان من الحب ميعةً

تعمُّ ، ولا عمياء إلا تجلت [١]

تمنيتها حتى إذا ما رأيتها

رأيت المنايا شرّعاً قد أظلت [٢]

كأني أنادي صخرة حين أعرضت

من الصم لو تمشي بها العصم زلت [٣]

صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة

فمن ملّ منها ذلك الوصلَ ملت

أباحت حمىً لم يرْعه الناس قبلها

وحلت تلاعاً لم تكن قبل حلت [٤]

فليت قلوصي عند عزة قيدت

بحبل ضعيف حُزّ منها فضلت

---

(١) ميعة الشيء : أوله أو معظمه . تعم: تشمل . العمياء : الضلالة والجهالة . تجلّت : انكشفت وانفرجت .

(٢) المنايا : جمع منية ، الموت . شُرّعاً : مسددة ، موجهة .

(٣) الصم : الصخور الصلبة المصمتة . العصم : جمع عصماء والأعصم من الظبا والوعول ما في ذراعيه أو إحداهما بياض وسائره أحمر أو أسود . زلّت : زلقت .

(٤) التلاع : جمع تلعة ، الأرض المرتفعة .

وغودر في الحي المقيمين رحلها
وكان لها باغ سواي فبلت [١]

وكنت كذي رجلين : رجل صحيحة
ورجل رمى فيها الزمان فشلت

وكنت كذات الظلع لما تحاملت
على ظلعها بعد العثار استقلت [٢]

أريد الثَّواء عندها ، وأظنها
إذا ما أطلْنا عندها المُكثَ ملت [٣]

فما أنصفت ، أما النساء فبغضت
إليَّ ، وأما بالنوال فضنت [٤]

يكلفها الغيران شتمي ، وما بها
هواني ، ولكن للمليكِ استذلت [٥]

---

(١) بلّت : هامت ضالةً على وجهها .

(٢) كذات الظلع : كالناقة العرجاء . تحاملت : تكلفت المشي بمشقة. استقلت : ذهبت وارتحلت .

(٣) الثواء : الإقامة . المكث : البقاء .

(٤) النوال : العطاء ، والمقصود به الوصال .

(٥) الغيران : ذو الغيرة ، يقصد به زوج عزة . المليك : أي المالك الذي يملك وهو زوج عزة . استذلت : هانت وخضعت .

هنيئاً مريئاً – غير داء مخامر –

لعزة من أعراضنا ما استحلت [١]

فوالله ما قاربت إلا تباعدت

بصرمٍ ، ولا أكثرت إلا أقلت [٢]

وكنا سلكنا في صعود من الهوى

فلما توافينا : ثبتُ وزلت

وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا

فلما تواثقنا : شددتُ وحلت

فإن تكن العُتبى فأهلاً ومرحبا

وحقت لها العتبى لدينا وقلت [٣]

وإن تكن الأخرى ، فإن وراءنا

منادح لو سارت بها العيس كلّت [٤]

---

(١) مخامر : مخالط ومداخل . من أعراضنا ما استحلت : يقصد شتيمته في عِرْضه إطاعة لأمر زوجها .

(٢) صرْم : قطيعة وهجران .

(٣) العتبى : الرضى وإزالة اللوم .

(٤) منادح : جمع مندوحة وهي الأرض الواسعة البعيدة . العيس جمع عيساء وأعيس : الإبل البيض الكريمة يخالطها شقرة أو ظلمة خفيفة . كلّت : تعبت من السير .

خليليَّ إن الحاجبية طلحتْ
قلوصيكما ، وناقتي قد أكلَّت [١]

فلا يبعدن وصل لعزة ، أصبحت
بعاقبةٍ أسبابه قد تولت [٢]

أسيئي بنا أو أحسني ، لا ملومةً
لدينا ، ولا مقلية إن تقلت [٣]

ولكن أنيلي ، واذكري من مودة
لنا خلَّة كانت لديكم فطلت [٤]

فإني وإن صدَّت لمثْنٍ وصادق
عليها ، بما كانت إلينا أزلّتِ [٥]

فلا يحسب الواشون أن صبابتي
بعزة كانت غَمْرةً فتجلّتِ [٦]

---

(١) الحاجبية : يقصد بها عزّة. طلحت وأكلّت: أتعبت وأجهدت.

(٢) فلا يبعدن : فلا يهلكن . بعاقبة : في ختام الأمر .

(٣) مقلية : مبغضة ومكروهة من القلى ، أي البغض . تقلَّت : تبغضت .

(٤) الخُلة : المحبة والصداقة . طلّت : أي منعت وأهدرت .

(٥) أزلّت : أسدت وأعطت .

(٦) الواشون: الذين يشون بالنميمة ويزينون الكذب . غمرة : شدة . تجلت : انفرجت .

فأصبحتُ قد أبللْتُ من دَنَفٍ بها

كما أدنِفتْ هَيْماء ثم استبلت [1]

فوالله ثم الله ما حلّ قبلها

ولا بعدها من خُلّةٍ حيث حلّت [2]

وما مرّ من يومٍ عليّ كيومها

وإن عظُمت أيام أخرى وجلّت [3]

وأضحت بأعلى شاهقٍ من فؤاده

فلا القلب يسلاها ولا العين ملّت [4]

فيا عجباً للقلب كيف اعترافه

وللنفس لمّا وطنت كيف ذلت [5]

---

(١) أبللت : شفيت . الدنف : المرض الملازم . الهياء : الناقة التي أخذها الهيام وهو داء يصيب الابل فتظل تهيم في الأرض دون أن ترعى حتى تموت . استبلت : برئت وشفيت .

(٢) الخلة : الخليلة ، أي الحبيبة والصديقة .

(٣) أيام أخرى : أي أيام امرأة أخرى . جلت : عظمت .

(٤) الشاهق : المرتفع . يسلاها : ينساها ، ويروى البيت هكذا :

وللعين أسرابٌ ، إذا ما ذكرتها

وللقلب وَسْواس إذا العين ملّت

(٥) اعترافه : اصطباره . ذلت : خضعت واستسلمت وأطاعت .

وإني وتَهْيَامي بعزَّة بعدما
تخلَّيتُ مما بيننا وتخلّت [1]

لكالمرتجي ظلّ الغمامة ، كلما
تبوّأ منها للمقيل اضمحلّت [2]

كأنّي وإيَّاها سحابةُ مُمحلٍ
رجاها ، فلما جاوزتْهُ استهلّت [3]

فإن سأل الواشون فيم هجرتها
فقلْ نفسُ حُرٍّ سُلّيتْ فتسلّتِ [4]

---

(١) التهيام : شدة الهيام والعشق بما يشبه الجنون . تخلت : تركت .

(٢) تبوأ المكان : اتخذه للإقامة . اضمحلت الغمامة : انقشعت وذهبت .

(٣) سحابة ممحل : سحابة بلد ممحل (الممحل: الجدب وانقطاع المطر وخلوّ الأرض من الكلأ) استهلّت : أمطرت وصبت ماءها .

(٤) الحر : الكريم ذو الإنفة . سليت : أخذت تسلو أي تنسى .

وأمطـــرت لـؤلـؤا

ليزيد بن معـاويـة

وهذه قصيدة فاتنة ، عنيت بهـا كتب البلاغة العربية ، لامتلائهـــا بالصور والتشبيهات والاستعارات التي يتذوقهـــا الدارسون على أنها نماذج لبلاغة التعبير الأدبي. والقصيدة تنسبها كتب التراث العربي ليزيد بن معاوية بين مـــا ينُسب له من مقطوعات شعرية أخرى . ولئن صدقت هذه النسبة ، لكنّا إزاء شاعرٍ أصيل مطبوع ، له أسلوبـــه الشعري المتميز ، وطرائقه في التعبير ، وعنايته بالصور الطريفة المبتكرة ، تلك التي هام بها البلاغيون والبديعيون استشهاداً وتحليلاً وتمثيلاً .

ولا نظن أن كتاباً من كتب البلاغة العربية يخلو من هذا البيت الشعري المأثور ، يستَشهد بـه على تتابع الاستعارات والصور الشعرية :

وأمطرت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقت
وردآ ، وعضتْ على العُنابِ بالبَرَدِ

وكثيراً ما تملكتنا الدهشة والغرابة لهـذا الشاعر الذي افتنّ في وصف حبيبته وهي تبكي وتنتحب ، فصور دموعها لؤلؤاً ، وعينيها نرجساً وخديها ورداً ، وشفتيها عُنّاباً ، وأسنانها بَرَداً .. وكل هذه الصور المجتمعة قد جاءت في بيتٍ واحداً ... فتأملوا !

وإذا صح أن الشاعر هو يزيد بن معاوية ، فهو إذن ثاني خلفاء بني أمية ، تولى الحكم بعد وفاة أبيه معاوية ، وهو الذي أمر عبد الله بن زياد والي الكوفة بمحاربة الحسين وأتباعه فهزمهم في كربلاء ، وقُتل الحسين في المعركة .. وبمقتله استتب الأمر للأمويين في دمشق ، واستقرت خلافتهم فيها ، وبدأوا يلتفتون إلى ما أحاط حياتهم من رفاهية ونعيم ، وحياة رغدة تليق بأهل القصور ..

لهذا نجد في شعر يزيد هذا الجوّ المترف ، وهذه الصور الطيّعة لمن شب في رفاهية العيش ونعيمه وهناءته ، ورقة الطبع التي لا يؤتاها إلا من عمرت نفسه بمباهج الحياة ومتعها ، وأصبح الحب لديه صورة مُنغمة مطرزة ، يفتنُ في إكسابها شتى الألوان والسّمات .. يقول في إحدى قصائده :

خذوا بدمي ذاتَ الوشاحِ ، فإنني
رأيت بعيني في أناملِها دمي

ولا تقتلوها إن ظفرتم بقتلها
بلى ، خبّروها بعد موتي بمأتمي

ثم يقول :

ولما تلاقينا ، وجدت بنانها
مخضبةً تحكي عصارة عندمِ

فقلت : خضبتِ الكف بعدي ، هكذا
يكون جزاءُ المستهامِ المتيمِ !

فقالت وأبدت في الحشا حرّق الجوى
مقالةَ مَن في القول لم يتبرمِ

وعيشِك ما هذا خضاباً عرفته
فلا تكُ بالبهتانِ والزورِ متهمي

ولكنني لما رأيتكُ نائياً
وقد كنت لي كفيّ وزندي ومعصمي

بكيتُ دماً يوم النوى ، فمسحته
بكفّي ، وهذا الأثر من ذلك الدمِ

فهذا عاشق لا يستوقفه إلا الخضاب على أنامل محبوبته ، فيدير معها هذا الحوار المترف – يذكرنا بما يدور من حوارات ناعمة بين أهل القصور – ويختتمه بتوضيح سبب هذا الخضاب، فقد بكت المحبوبة عليه دماً يوم فراقه ، فلما أرادت مسح هذا الدم بكفها تخضّبت أناملها .. فهي لم تتزين قطّ بعد رحيله حزناً عليه ، لكن دمها هو الذي يصبغ أناملها .

والعاشق هنـــا عاشق أمير ، المحبوبة هي التي تبكي عليه غداة نأيه وبُعده ، بعد أن كان لها الكفّ والزند والمعصم ، وهي لا تبكي عليه دموعاً ولكنها تبكي عليه دمـاً ، من شدة ما تحمله له من حب ووجد وتبريح ، فانظروا أي نعيم وترف وتدلل !

***

يبقى أن نلتقي بالقصيدة التي شاعت شهرتها منسوبة إلى يزيد ، وأن نشبع فضولنا بالتعرف على أبياتها الجميلة ، ذات العاطفة الرقيقة المترفة ، عاطفة أبنـــاء القصور ، وأصحاب الترف والنعيم ..

يقول يزيد بن معاوية :

نالت على يدهـا مـا لم تنله يدي
نقشاً على معصم أوهت به جَلَدِي [١]

كأنـه ُطرْقُ نمـلٍ في أناملهـــا
أو روضة رصّعتْها السحب بالبرد [٢]

---

(١) أوهت به جلدي : أضعفت قدرتي على التحمل .

(٢) الأنامل : جمع أنملة : طرف الإصبع أو رأس الإصبع . البَرَد: ماء الغمام يتجمد في الهواء البارد ويسقط على الأرض في صورة حبات .

وقوسُ حاجبهـــا من كلّ ناحية

ونَبْلُ مقلتها ترمي به كبدي [1]

مدّت مواشطهـا في كفّـهـا شركاً

تصيد قلبي بـه من داخـل الجسد

أنيسةٌ لو رأتها الشمس ما طلعت

من بعدِ رؤيتهـا يومـاً على أحدِ

سألتها الوصْلَ قالت : لا تُغَرّ بنا

مَنْ رام منّا وصالاً مات بالكمدِ

فكم قتيلٍ لنا بالحب مـات جوىً

من الغرامِ ، ولم يُبْدِىء ولم يُعِدِ

فقلتُ : أستغفر الرحمنَ من زلـلٍ

إنّ المحب قليل الصـبر والجَلَدِ

قد خلّفَتني طريحاً وهي قائـلة :

تأمّلوا كيف فِعْل الظبي بالأسدِ [2]

قالت لطيفِ خيالٍ زارني ومضى :

بالله صفْهُ ، ولا تنقصْ ولا تزدِ

---

(١) النبل : السهام .

(٢) الظبي : الغزال .

فقال : خلّفْتُه لو ماتَ من ظمأٍ

وقلتِ : قف عن ورود الماء، لم يَرِدِ !

قالت: «صدقتَ، الوَفا في الحب شيمته»

يا بَرْدَ ذاك الذي قالت على كبدي ![1]

واسترجعت سألت عني ، فقيل لها :

ما فيهِ من رَمَقٍ ، دقّتْ يداً بيدِ

وأمطرت لؤلؤاً من نرجسٍ ، وسقت

ورداً ، وعضّت على العنّاب بالبَرَدِ[2]

وأنشدت بلسان الحال قائلةً

من غير كُرْهٍ ولا مَطْلٍ ولا مددِ[3]

والله ما حزنت أختٌ لفقد أخٍ

حزني عليه ، ولا أمٌّ على ولدِ

إن يحسدوني على موتي ، فوا أسفي

حتى على الموت لا أخلو من الحسدِ

---

(١) شيمته : خلقه وطبيعته .

(٢) العنّاب : واحدته عنابة ، فاكهة من فصيلة النبقيات ، تشبه حبة الزيتون ، وأجوده الأحمر الحلو . والمقصود به شفتا المحبوبة . أما البَرَد فالمقصود به أسنانها الناصعة البياض .

(٣) المطل : التسويف والتأخير .

(فــوز)

للعباس بن الأحنف

من أجمل ما يروونه عنه أنه خرج مع الرشيد ذات مرة إلى خراسان ، وكان الرشيد قد وعده أنه لن يغيب عن أهله في بغداد ، لكن الغياب طال ، فاشتد به الشوق إلى أهله ، واحتال هو بأبيات تصل إلى سمع الرشيد لعله يأمر له بالعودة:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا
ثمّ القفولُ ، فقد جئنا خراسانا

متى يكون الذي أرجو وآمله
أما الذي كنت أخشاه فقد كانا

ما أقدر الله أن يدني – على شَحَطٍ –
جيران دجلة من جيران « جيحانا » [1]

(١) ويروى البيت أيضاً : سكان دجلة من سكان جيحانا .

يا ليت من نتمنى عنـــد خلوتنا
إذا خـــلا خلوةٌ يومـــاً تمنانـــا

وتصل الأبيات إلى سمع الرشيد ، فيتأثر بها غاية التأثر ، ويأذن لشاعره العباس بن الأحنف بالعودة إلى بغداد ..

***

رواية أخرى طريفة حكاها المسعودي في كتابه « مروج الذهب » عن جماعة من أهل البصرة ، قال :

خرجنا نريد الحج ، فلما كنا ببعض الطريق ، إذا غـلام واقف على المحجة وهو ينادي : أيها الناس ، هل فيكم أحد من أهل البصرة ؟ قال : فعدلنا إليه ، وقلنا له : ما تريد ؟

قال : إن مولاي لما به يريد أن يوصيكم . فملنا معه ، فإذا شخصٌ مُلقى على بعدٍ تحت شجرة لا يحير جواباً ، فجلسنا حوله فأحسّ بنا ، فرفع رأسه وهو لا يكاد يرفعـه ضعفاً ، وأنشأ يقول :

يا غريب الدارِ عن وطنـــه
مفرداً يبـــكي على شجنـــه
كلمـا جـدّ البكاء بـــه
دبّت الأسـقام في بدنـــه

ثم أغمي عليه طويلاً ، فبينا نحن جلوس حوله إذ أقبل طائر فوقع على الشجرة وجعل يغرد ، ففتح عينيه وجعل يسمع تغريد الطائر ثم أنشأ يقول :

ولقد زاد الفؤاد شجاً
طائرٌ يبكي على فَنَنِه
شفَّه ما شفني ، فبكى
كلنا يبكي على سكنه !

قال : ثم تنفس نفساً فاضت نفسه منه ، فلم نبرح من عنده حتى غسلناه وكفّناه وتولينا الصلاة عليه ، فلما فرغنا من دفنه سألنا الغلام عنه فقال هذا العباس بن الأحنف .

* * *

فإذا تركنا هذه الروايات عن العباس وما أكثرها، وانتقلنا إلى ديوان شعره لفت نظرنا أنه ديوان كامل من شعر الحب ، لا مكان فيه لأي غرض آخر من الأغراض التقليدية التي كانت مألوفة في شعرنا العربي القديم ، إنه شاعر لا يمدح ولا يهجو ولا يرثي ولا يفخر ، هو شاعر عاشق ، وعاشق فحسب ، شهد له البحتري بأنه أغزل الشعراء ، وقصائده في حبيبته فوز تنطق بعاطفة صادقة ، وشاعرية أصيلة ، ولغة شعرية عذبة سائغة لا تكلف فيها ولا تصنع ، تنساب إلى الناس رقيقة صافية ..

يقول العباس عن أميرته :

أميرتي ، لا تغفري ذنبي
فإن ذنبي شدةُ الحب

حدثت قلبي دائماً عنكمو
حتى قد استحييت من قلبي

ويصف زمن العاشق ، ووقع ساعاته وأيامه وشهوره في في النفس ، فيقول :

اليومُ مِثلُ العامِ ، حتى أرى
وجهكَ ، والساعة كالشهرِ

ماذا على أهلك أن لا يروْا
عطراً ، وأنت العطرُ للعطرِ

أفسد قلبي شادنٌ أحورٌ
يسحر بالعينين والثغرِ

لو كنت أدري أنه ساحرٌ
علّقْت تعويذاً من السحر

ويبدع حين تصطرع في نفسه رغائب الحب وشهواته مع ما ينبغي له من تعفف ووقار ، فيقول عن النظر الفاسق :

أتأذنون لصبٍّ في زيارتكم
فعندكم شهوات السمع والبصرِ

لا يضمر السوء إن طال الجلوس به
عفُّ الضمير ولكن فاسق النظرِ

ويقول العباس بن الأحنف عن العصيان الجميل ، العصيان بالحب :

أستغفر الله إلاّ من مودتكم
فإنهــا حسنــاتي يوم ألقــاهُ

فإن زعمت بأن الحب معصيــةٌ
فالحب أحسن ما يُعصى به اللهُ !

***

يلفت النظر في شعر العباس بن الأحنف موسيقاه الآسرة ، وإذا كان القدمــاء قد وصفوا الأعشى بأنه صنّاجة العرب ، فإن العباس جدير بأن يسمّى صناجة الشعر العربي في العصر العباسي كله ، لمـا تميز به شعره من إيقاعات موسيقية عذبة مطّردة ، وأجراس حلوة متناغمة وسلاسة تجعل لشعره وقعاً طيباً في النفس والعقل معاً ..

ثم يلفت النظر في شعره أيضاً ، هذه الشخصية المواصلة الطريفة ، شخصية الشاعر ، وهي دائمة الحوار والأخذ والرد،

والقصّ والسرد ، والتذكير – خلال القصائد – بأحداث مضت وذكريات وقعت وأيام تقضّت ، مما يضفي على هذه القصائد جوًّا واقعياً ، وإطاراً من الصدق، يجعل النفس أكثر تقبلاً لها وانفتاحاً عليها ، وهو في قصائد حبه جميعها دائم التصريح بالشكوى، دائم الأمل في الوصال، دائم الاستعطاف عن ذنبٍ لا يدريه ، دائم الحديث عن كتمان لم يستطعه ، فذاع الحب وشاع وتناقلته الوشاة والحواسد ..

وواضح من سيرة العباس بن الأحنف أنه رافق هارون الرشيد في حملاته على خراسان وأرمينيا ، وأنه كان رقيق الحاشية لطيف الطباع ، مفطوراً على الحب والغزل ، حتى لقد جعل شعره كله قصيدة حب متصلة ، وتقول كتب التراث إنه توفي سنة مائة واثنتين وتسعين من الهجرة وقيل بل سنة مائة وأربع وتسعين ، وإن يوم وفاته كان يوم وفاة إبراهيم الموصلي نديم الخلفاء والكسائي النحوي المعروف وهشيمة بن الخمارة فلما رفع الأمر إلى الرشيد أمر المأمون أن يصلي عليهم ، فأمر المأمون بتقديم العباس بن الأحنف ليصلي عليه أولاً ، فلما سئل عن سبب تقديمه له على الآخرين أنشد المأمون من شعره :

وسعى بها ناس فقالوا إنها
هي التي تشقى بها وتكابدُ

فجحدتهم ليكون غيرك ظنّهم
إني ليعجبني المحبّ الجاحدُ

ثم قال : أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة ؟

***

والآن مع قصيدته « فوز » :

فوز

ألم تعلمي يا « فوز » أني معذب
بحبكم ، والحيْن للمرء يجلبُ[1]

وقد كنت أبكيكم بيثرب مرةً
وكانت منى نفسي من الأرض يثرب[2]

أؤملكم حتى إذا ما رجعتمو
أتاني صدودٌ منكمو وتجنب

فإن ساءكم ما بي من الصبر ، فارحموا
وإن سرَّكم هذا العذاب ، فعذّبوا

فأصبحت فيما كان بيني وبينكم
أُحدِّثُ عنكم من لقيت فيعجب

---

(١) الحين : الهلاك .

(٢) يثرب : الاسم القديم للمدينة المنورة .

وقد قال لي ناس تحملْ دلالها
فكلُّ صديق سوف يرضى ويغضبُ

وإني لأقلى بذْل غيرك فاعلمي
وبخلك في صدري ألذُّ وأطيب [1]

فإني أرى من أهل بيتك نِسوةً
شبينَ لنا في الصّدر ناراً تلهب [2]

عرفن الهوى منّا فأصبحن حسّدا
يُخبرن عنا من يجيء ويذهب

وإني ابتلاني الله منكم بخادم
يبلغكم عني الحديث ويكذب

ولو أصبحت تسعى لتوصل بيننا
سعدت، وأدركت الذي كنت أطلب

وقد ظهرت أشياء منكم كثيرة
وما كنت منكم مثلها أترقب

---

(١) أقلى : أبغض وأكره . بذل غيرك : عطاء غيرك ووصاله .

(٢) شبين : أوقدن وأشعلن .

عرفت بما جرَّبتُ أشياء جمّةً
ولا يعرف الأشياء إلا المُجربُ

* * *

ولي يوم شيعت الجنـازة قصـةٌ
غداة بدا البدر الذي كان يحجب

أشرتُ إليهـا بالبنان فأعرضت
تبسمْ طَوْراً ثم تزوي فتقطب [1]

غـداة رأيتْ الهاشميـة غدوةً
تهادى حواليْها من العين ربرب [2]

فلم أرَ يومـاً كان أحسن منظراً
ونحن وقوف وهي تنأى وتندب [3]

فلو علمت « فوز » بمـا كان بيننـا
لقد كان منها بعض ما كنت أرهب

(١) البنان : طرف الاصبع . تزوي فتقطب: تزوي ما بين حاجبيها علامة الغضب والاستياء .

(٢) الربرب : القطيع أو السرب من بقر الوحش ، والمقصود به هنا سرب من الحسان . العين : جمع عيناء ، وهي البقرة الوحشية (كانت العرب تشبه الحسان بها لجمالها) .

(٣) تنأى : تبعد .

ألا جعل الله الفدا كلَّ حُرَّة
« لفوز » المنى إنّي بها لمعذَّبُ

فما دونها في الناس للقلب مطلبٌ
ولا خلفها في الناس للقلب مذهب [1]

وإن تك « فوز » باعدتنا وأعرضت
وأصبح باقي حَبْلها يتقضّب [2]

وحالت عن العهد الذي كان بيننا
وصارت إلى غير الذي كنت أحسب [3]

وهان عليها ما ألاقي فربّما
يكون التلاقي والقلوب تقَلَّبُ [4]

ولكنني والخالق البارىء الذي
يزارُ له البيت العتيق المحجب

لأستمسكن بالودّ ما ذرّ شارق
وما ناح قُمريّ وما لاح كوكب [5]

---

(١) مذهب : سبيل أو مذهب .

(٢) يتقضب : يتقطع . حبلها يتقضب ، أي يذهب ما بيني وبينها من ودّ ومحبة .

(٣) حالت : تغيرت وتبدلت .

(٤) تقلب : تتغير وتتبدل من حال الى حال .

(٥) ذر : بزغ ولمع ولاح . شارق : أي نجم في السماء . قمري : نوع من الحمام حسن الصوت .

وأبكي على فوز بعين سخينة
وإن زهدت فينا ، نقول: سترغب[1]

ولو أن لي من مطلع الشمس بكرة
إلى حيث تهوى بالعشي فتغرب

أحيط به ملكاً ، لما كان عِدْلها
لعمرك .. إني بالفتاة لمعجب[2]

وقد استطاعت الشاعرة العراقية الدكتورة عاتكة الخزرجي - في رسالتها للدكتوراه عن العباس بن الأحنف - أن تكشف النقاب عن سرّ محبوبته فوز ، وأن تثبت أنها عُلية بنت المهدي أخت هارون الرشيد ، وأن العباس لم يستطع أن يبوح باسمها في شعره ، فرمز لها باسم «فوز» .

---

(١) سخينة : الباكية بالدموع الحارة .

(٢) عدلها : كفؤاً لها ومساوياً لقيمتها ومعبراً عن تقديري وإعزازي لها .

[وحيد المغنية]

لابن الرومي

وهذه مغنية خلدها شاعر .

أما المغنية فهي « وحيد » أشهر مغنيات العصر العباسي وأبعدهن صيتاً وأكثرهن جمالاً وفتنة ، اجتمع لها الصوت الرخيم والحسن البديع ، فتمت صورتها على أحسن وجه لمن يرى ولمن يسمع ..

وأما الشاعر فهو ابن الرومي، أشعر شعراء العصر العباسي كله ، وإن يكن أقلَّ الشعراء حظاً من عناية التاريخ الأدبي وإنصاف النقاد والدارسين قدامى ومحدثين، حتى كان الكتاب الذي ألّفه عنه الأديب الراحل عباس محمود العقاد دراسة منهجية نفسية جامعة ، وضعتْه في مكانه من مسيرة الشعر العربي ، وأنصفتْه من عنَت التاريخ وتجاهل المتأدبين .

وصلت لنا صورة ابن الرومي – الشاعر الفذ – في إطار من لوحاته الشعرية البارعة وقصائده الممتلئة فناً ذكياً وحياة

متدفقة ، وكان أقصى ما تقوله عنه كتب الأدب إنه شاعر هجاء لم يسلم أحد من لسانه ، برع في وصف الأمور الدنيا للحياة وشؤونها السوقية ، ألا ترون ابن المعتز – الخليفة الشاعر – وهو يصف الهلال بأنه زورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر ، بينما يقنع ابن الرومي بوصف خباز يتفنن في صنع رقاقته على النار :

ما بين رؤيتها في كفه كرةً
وبين رؤيتها قَوْراءَ كالقمرِ
إلا بمقدار ما تنداحُ دائرة
في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

ويروى البيت الثاني على هذه الصورة أيضاً :

إلا بمقدار ما تنداحُ دائرة
في لُجَّة الماء يلقى فيه بالحجر

ولهذا ، فقد بقي ديوان ابن الرومي حتى يومنا هذا ، في صورته الكاملة ، شبه مفقود أو مفتقد، اللهم إلا بضعة فصول منه حققها ونشرها الأديب الراحل كامل كيلاني ، بالرغم من أنه – كما يقول الرواة – أطول ديوانٍ محفوظ في الشعر العربي كله ، لكن إهمال القدماء له وحنقهم عليه وضيقهم بهجائه المقذع – الذي يحتلُّ مساحة غير يسيرة من الديوان – فضلاً عن أن نسخة الديوان الكاملة لم تكن ميسورة في بعض البلاد

العربية التي كان لها قصب السبق في إعادة طبع بعض الدواوين وتحقيقها ـ كل ذلك جعل شعره غير مجموع بين أيدينا حتى اليوم .

يقول ابن خلكان يصف ابن الرومي ويقـــدره : « هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب ، يغوص على المعـاني النادرة فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يترك فيه بقية ».

ويقول عنه العقاد : « الطبيعة الفنية هي الطبيعة التي بها يقظة بيّنة للإحساس بجوانب الحياة المختلفة . وتمام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئاً واحداً لا ينفصل فيـــه الانسان الحي عن الإنسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه يخفي فيهـا ذكر الأماكن والأزمان ولا يخفي فيها ذكر خالجة ولا هاجسة ممـا تتألف منه حياة الإنسان .

ثم يقول :

« وابن الرومي واحد من أولئك الشعراء القليلين الذين ظفروا من الطبيعة الفنية بأوفى نصيب . فمن عرف ابن الرومي الإنسان حقّ عرفانه ولم ينقصه منـه إلا الفضول ، والغريب مع هذا أن ابن الرومي الشاعر هو ابن الرومي الذي لم يُعرف

بعد وإن عُرفت له مزايا ونالت حسنات له حقهـــا من الإعجاب » .

* * *

وُلد أبو الحسن علي بن العبـاسي بن جريج الرومي سنة إحـدى وعشرين ومائتين من الهجرة ، من أصل رومي غير عربي ، فجده جريج أو جورجيس : يوناني ، وأمه من أصل فارسي ، أما أبوه فقد مات عنه وهو حدث صغير .

ويقولون إن حياته اكتنفها الشقاء واليأس والهمّ من كل جانب ، فقد رزق ابن الرومي ثلاثة أبنـاء ماتوا جميعاً في طفولتهم ، ورثاهم بأبلغ وأفجع ما رثى بـه والد أبناءه ؛ ثم لحقت بهم زوجته فتمّت بها مصائبه وأحزانه .

والذين يحاولون أن يقدموا له صورة وصفية يقولون إنـه كان صغير الرأس مستدير أعلاه ، أبيض الوجـه يخالط لونه شحوب في بعض الأحيان وتغيّر ، ساهم النظرة ، بادياً عليـه وجوم وحيرة .. نحيـلاً ، أقرب الى الطول ، كث اللحية ، بادر إليـــه الصلع والشيب في شبابه ، وأدركته الشيخوخة الباكرة فاعتلّ جسمه وضعف نظره وسمعه ، ثم ما لبث — في شيخوخته — أن تبدلت ملامحه وتقوس ظهره ولحق بـــه مـــا لا بد أن يلحق بمثله من تغيير نتيجة الأسقام والهموم وتوالي المحن .

ويؤخذ من الروايات الموثوق بها أنه توفي سنة أربع وثمانين ومائتين من الهجرة ، وأنه أدرك في حياته ثمانية خلفاء من بني العباس هم : الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد الذي توفي بعد ابن الرومي ببضع سنوات. والمتصفح لأشعار ابن الرومي – وما أكثرها وأحفلها بسمات العبقرية والتفنن – يدرك على الفور أنه كان شاعراً محباً للحياة ، منغمساً في ظواهرها وجوهرها ، ملتقطاً لكل ما فيها من صور وأشكال ، مشخصاً لمعانيها ومدركاتها ، وكانت عبادة الجمال – وهو أسمى تعبير عن الحياة – دأبه وديدنه .

* * *

هذا النهم بعبادة الجمال ، وحب الحياة ، هو الذي جعله يهوى مغنية عصره الذائعة الصيت ، الفاتنة الجمال ، ويهيم بها وَجداً وعشقاً ، وترتجف بهذا الحب ريشته الساحرة الملهمة ، فيفتن في رسم لوحته الشعرية الفريدة عن « وحيد » .

والقصيدة واحدة من عيون قصائده ، تنطق بقدرته الخارقة على التصوير والتجسيم والتجسيد ، والاستقصاء البارع اليقظ في تناول أدق التفاصيل ، وذاتيته المتفردة كشاعر ، تلك التي تتفجر بها كلماته وموسيقاه وقوافيه .

ويصل ابن الرومي إلى ذروة الإبداع الشعري عندما يرسم بريشته المقتدرة صورة وصفية لوحيد وهي تغنّي ، هنا نجد

لونـــاً من التناول الشعري لا مثيل له في شعرنا العربي كله ، بينما يرسم الشاعر العاشق كل خالجة من خوالجهـا وكل حركة من حركاتها الصوتية هدوءاً وانطلاقاً ، بسطاً وقبضاً .

وفي ختام هذه اللوحة الشعرية الفاتنة، يكشف ابن الرومي النقاب عن مدى حبه لوحيد ، وعمق تعلقه بها، فهو لا يستمع لنصيح يلومه في هواها ، بعد أن تملكه هذا الهوى وسد عليه كل الاتجاهات والأبعاد: عن يمينه وعن شماله وقدامه وخلفه.. فأين منه المفر ؟

إنـــه حب من طراز فريد .. فهو حب دائم التجدد ، دائم المنح والعطاء .

* * *

يقول ابن الرومي :

نار الحسْن :

يا خليليّ ، تيّمتْني وحيـــد
ففؤادي بهـــا معنّـى عميدُ [1]

---

(١) تيمتني : ملكتني وأسرتني بحبها . المُعنّى : الذي يكلف بمـا لا قبَل له به . العميد : مَن هدّه العشق وأضناه الحب .

غادةٌ زانهــا من الغصن قدٌّ
ومن الظبي مقلتانِ وجيدُ [1]
وزهاهــا من فرعها ومن الخدّ
ين ، ذاك السواد والتوريد [2]
أوقدَ الحسنُ نارَه في وحيدٍ
فوق خدٍّ ما شانَهُ تخديد [3]
فهي بردٌ بخدهــــا وسلامٌ
وهي للعاشقين جهــدٌ جهيــد
لم تضرْ قط وجهها وهو مــــاء
وتذيبُ القلوبَ وهي حديد [4]
ما لمـــا تصطليه من وجنتيها
غير ترشاف ريقهـــا تبريد [5]
مثلُ ذاك الرضاب أطفأ ذاكَ الـ
وجدَ ، لولا الإباءُ والتصريد [6]

---

(١) القد : القوام . الجيد : العنق . مقلتان : عينان .
(٢) فرعها : شعرها . التوريد : الاحمرار .
(٣) تخديد : اضطراب وتشنج ناتج عن الهزال .
(٤) لم تضر : لم تؤذ .
(٥) تصطليه : تعاني من حرارته .
(٦) التصريد : العجز عن بلوغ الري لقلة ما يرتوى به .

وصف وحيد :

وغريرٍ بحسنها قـال : صفْها !
قلت : أمرانِ ، هيّن وشديدُ
يسهل القول إنهـا أحسنُ الأشيا
ءِ طُرّاً ، ويعسُرُ التحـديد [1]
شمسُ دَجنٍ ، كلا المنيريْن – من شم
سٍ وبدرٍ – من نورها يستفيد [2]
تتجلى للنـاظرين إليهـا
فشقيٌّ بحسنهـا وسعيـد
ظبية تسكن القلوب وترعـا
هـا ، وقُمريّة لهـا تغريد [3]

وحيد وهي تغني :

تتغنى ، كأنهـا لا تغنّـي
من سكون الأوصال ، وهي تجيد

---

(١) طُرّاً : جميعاً .
(٢) دجن : ظلام .
(٣) قُمرية : حمامة حسنة الصوت .

لا تراها هناك ، تجحظُ عيْن

لك منها ، ولا يدِرُّ وريدُ [1]

من هدوٍّ ، وليس فيه انقطاع

وسُجُوٍّ ، وما به تبليد [2]

مدٌّ في شأوِ صوتها نَفَسٌ كا

فٍ ، كأنفاسِ عاشقيها مديد [3]

وأرقَّ الدلالُ والغنجُ منه

وبراهُ الشّجا ، فكاد يبيد [4]

فتراه يموت طوْراً ويحيا

مستلَذٌّ بسيطه والنشيد

فيه وَشيٌ ، وفيه حَلْيٌ من النغْـ

ـمِ مصَوغٌ يختال فيه القصيد [5]

طاب فُوها وما تُرجّعُ فيه

كلُّ شيءٍ لها بذاك شهيد [6]

---

(١) يدرّ الوريد : يمتلىء دماً نتيجة المجهود والمشقة .

(٢) السُجُوّ : السكون والليونة .

(٣) شأو صوتها : قيمة صوتها وعظمته .

(٤) الغنج : الدلال . الشجا : الحزن وانشغال البال .

(٥) وشي : حلية وتزيين .

(٦) فوها : فمها . ترجع : تعيد الترديد .

ثَغَبٌ ينقعُ الصدى ، وغناءٌ
عنده يوجدُ السرور الفقيد [1]

فلها – الدهر – لاثمٌ مستزيدٌ
ولها – الدهر – سامعٌ مستعيدُ

في هوى مثلِها يخفُّ حليمٌ
راجحٌ حلمه ، ويغوى رشيد [2]

ما تعاطي القلوب إلا أصابت
بهواها منهنّ حيث تريد

وترنُّ العزفِ في يديها مضاءٍ
وَتَرَ الرَّجْفِ فيه سهمٌ شديد

وإذا أنبضتْه للشربِ يوماً
أيقن القوم أنها ستصيد [3]

« معبدٌ » في الغناء وابن « سريج »
وهي في الضرب «زلزل» و «عقيد» [4]

---

(١) الثغب : الغدير البارد الماء لم تصبه الشمس . ينقع الصدى : يبلُّ العطش ويروي الظمأ .

(٢) يخف : يطيش عقله .

(٣) الشَّرب : جمع شارب . أنبضته : سددته .

(٤) معبد وابن سريج وزلزل وعقيد : من مشاهير المغنين والعازفين في العصر العباسي .

عيبُها أنها إذا غنَّتِ الأحرا
رَ ظلُّوا وهُمْ لديها عبيدُ

واستزادت قلوبهم من هواها
بِرُقاها ، وما لديهم مزيد [1]

التوحيد في الحب :

وحسان عرضن لي ، قلت : مهلاً
عن وحيد ، فحقها التوحيد

حسنها في العيون حسنٌ وحيدٌ
فلها في القلوب حُبٌّ وحيدُ

ونصيحٍ يلومني في هواها
ضلَّ عنه التوفيق والتسديد

لو رأى من يلوم فيه لأضحى
وهو لي المستريث والمستزيد

ضَلَّةٌ للفؤاد يحنو عليها
وهي تزهو – حياته – وتكيد [2]

(١) رقىً : جمع رقية ، ما له تأثير السحر .

(٢) ضلة : منية وأمل .

سحرته بمقلتيهـــــــا فأضحت
عنده والذميم منهـــــــا حميد

خُلقت فتنـةً ، غنـاءً وحسنـاً
ما لهـا فيها جميعـاً نديد [1]

فهي نُعمى ، يميدُ منهـا كبيرٌ
وهي بلوى ، يشيب منها وليد [2]

ليَ - حيث انصرفتُ منها - رفيقٌ
من هواها - وحيث حلّت قعيدُ

عن يميني ، وعن شمـالي ، وقُدّا
مي وخلفي ، فأين عنـه أحيد

سدّ شيطان حبّهـا كلّ فجٍّ
إنّ شيطـان حبهـا لمريد [3]

---

(١) نديد : مثيل ونظير .

(٢) يميد : يزلزل ديهتز .

(٣) فج : طريق . مريد : الخبيث الشرير .

جمال صوت وصورة :

ليت شعـري إذا أدام إليهـا
كرّةَ الطرْفِ ، مبدىء ومُعيد[1]

أهي شيءٌ لا تسأم العين منـه ؟
أم لهـا كل ساعـة تجديد

بل هي العيش لا يزال متى استع
رض يُملي غرائباً ويفيـد

منظرٌ ، مسمعٌ ، معانٍ من اللّهْ
وِ ، عتادٌ لما يحبّ عتيـدُ[2]

لا يدبّ الملال فيهـا ، ولا ينق
ض من عَقْد سحرهـا توكيد

حسنهـا في العيون حسنٌ جديد
فلهـا في القلوب حبٌّ جديد

---

(١) كرّة الطرف : إعادة النظر والتأمل .

(٢) عتاد : ذخيرة ومتاع .

شكوى واستعطاف :

أخـذ الدهر يـا وحيـد لقلبي
منكِ ، ما يأخذ المُديل المعيد [1]

حظُّ غيري من وصلِكم قرّة العيـ
نِ ، وحظّي البكاء والتسهيد

غـير أني مُعلل منـكِ نفسي
بعِداتٍ خلالهن وعيـــد [2]

مـا تزالين نظرةٌ منـك موتٌ
لي مميتٌ ، ونظـرةٌ تخليـدُ

نتلاقى ، فلحظـةٌ منـك وعـدٌ
بوصـال ، ولحظـةٌ تهديـدُ

قد تركتِ الصّحاح مرضى يميدو
نَ نُحولاً ، وأنت خوطٌ يميد [3]

---

(١) المديل : المغيّر المقلب الأحوال .

(٢) عدات : جمع عدة ، وعد أو أمنية .

(٣) خوط : الغصن الناعم .

والهوى لا يزال فيه ضعيف
بين ألحاظه صريعٌ جليد [1]

ضافَني حبُّك الغريب ، فألوى
بالرقاد النسيبُ ، فهو طريد [2]

عجباً لي ، إنَّ الغريب مقيمٌ
بين جنبيَّ ، والنسيب شريدُ

قد مللنا من ستر شيءٍ مليحٍ
نشتهيه ، فهل له تجويد ! [3]

هو في القلب ، وهو أبعد من نج
م الثريّا ، فهو القريب البعيد !

* * *

---

(١) جليد : ذو صلابة وجَلَد .

(٢) ضافني : أمالني واستهدفني . ألوى به : ذهب به وعصف به .

(٣) تجريد : انكشاف وظهور .

أراك عصي الدمع

لأبي فراس الحمداني

وهذا نموذج للشعر العربي الأصيل إذا ما صدر عن وجدان عاشق فارس ، يعتزّ بنسبه العربي العريق ، الذي ينتهي إلى قبيلة « تغلب » العربيـة التي اشتهرت بالنخوة والفروسة ، وتسري في عروقه دمـاء عربية أصيلة جعلته دائم الفخر والاعتزاز بنفسه ومكانته ، ولم لا ؟ ، وهو الشاعر الفارس الأمير وابن عم الأمير سيف الدولة أمير حلب ، أشهر أمير عربي خلّده شاعر العربية الكبير « المتنبي » في سيفياته التي قالهـا وهو في جواره ، يصف وقائعه ، ويسجل أحداث زمانه .

ذلكم هو أبوفراس الحمداني ، ولد بالموصل سنة تسعمائة واثنتين وثلاثين ميلادية ، وقتل أبوه وهو طفل صغير ، فرباه ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة ، وهو الفارس الأديب ، فنشأ أبو فراس على الفروسية والأدب ، ثم قلده سيف الدولة الإمارة

على «منبج وحران» وأعمالها وهو في السادسة عشرة من عمره واصطحبه معه في معاركه ، وما كان أكثرها ، مع الروم الطامعين في الوطن العربي الذي تفتّت وانقسم بانحلال الدولة العباسية وانقسامها على نفسها الى إمارات ومناطق نفوذ. وقدّر لدولة الحمدانيين ولسيف الدولة أن يكونا القلعة الوحيدة الصامدة في وجه الدولة البيزنطية ، وأن يكونا الدرع الواقية للثغور العربية في مواجهة أعظم دول ذلك الزمن.

ويؤسرُ أبو فراس في إحدى معارك سيف الدولة مع الروم ، وينقله الروم إلى القسطنطينية ، ويظلُّ في الأسر أربع سنوات ، ويقال بل هي سبع سنوات ، وتوالت رسائله لسيف الدولة، وقصائده الباكية المستعطفة يطلب فيها مفاداته. ويختلف المؤرخون في سبب بطء سيف الدولة وتراخيه في مفاداته . يقول البعض هي شواغله ومسؤولياته والأحداث المتتالية التي مرت بها حلب ، والبعض الآخر يحاول أن يوحي بأنه كانت هناك منافسة خفية بينه وبين سيف الدولة ، وأن سيف الدولة كان يخشى على إمارته من ابن عمه ، وهو رأي لا تقوم عليه شواهد أو أدلة قوية ، وثمة من يقول إن بلاط سيف الدولة شهد مؤامرة دبرها بعض الحاقدين على أبي فراس أوغرت صدر سيف الدولة عليه فلم يسرع إلى مفاداته ..

على أيٍّ ، لقد أطلق سراح أبي فراس بعد أن افتداه ابن عمه ، وولاّه سيف الدولة إمارة حمص ، ثم مات بعد عام

واحـد . وفجأة قامت الحرب بين أبي فراس وأمير حلب الجديد : أبي المعالي بن سيف الدولة .. وابن أخت أبي فراس نفسه .. وتنتهي الحرب بمقتل أبي فراس قرب حمص سنة تسعمائة وثمـاني وستين ، وينتهي معهـا طموحه وفخره وفروسيته ..

* * *

ولأبي فراس ديوان من الشعر القوي الجزل،العذب الأنغام، الصادق العاطفة والتصوير ، يسجل فيه تاريخ حياته ويصور فروسيته ويفخر بمآثر أسرتـه ، ويثني على سيف الدولة والعلويين .. ومن بين قصائد هـذا الديوان اشتهرت رومياته أي القصائد التي قالها وهو في الأسر، وهي تكشف عن مدى شكواه وعمق حزنه ورثائه لأقربائه الذين فقدهم أثناء الأسر والغياب عن الوطن خاصة أُمه .

لكن قصيدةً من قصائد أبي فراس يتاح لهـا من الذيوع والشهرة ما لا يتاح لبقية قصائده ، تلك هي مطوّلته « أراك عصي الدمع » التي تصوّر أدق تصوير وجدان هذا الشاعر الفارس، الذي يذوب رقة وعاطفة ولكن في اعتزاز وشموخ ، ومن خلالِ نفسٍ أبية ترفض كلّ ذلة ، ولا تعرف إلا الإباء والجرأة والإقدام . فالشاعر الذي يذوب وجداً وهياماً في مواقف الحب والصبابة ، لا يحني رأسه ، ولا يدوس عـلى كرامته ، لكنه دائماً شامخ أبي ، شأنه في حروبه ومعاركه

مع الخصوم والأعداء .. هذه القصيدة التي اشتهرت عندما دخلت ساحة الغناء العربي، ورددتها الألوف، معجبةً بعاطفة الشاعر الفارس، وكبريائه وشممه، وفنه الشعري المقتدر، وصياغته العذبة القوية .. هي التي سنتوقف عندها الآن، قراءةً وتذوقاً وتأملاً ..

* * *

يقول أبو فراس الحمداني ..

استهلال وتقديم :

أراكَ عصيَّ الدمعِ شيمتكَ الصبرُ
أما للهوى نهيٌ عليكَ ولا أمرُ (١)

بَلى، أنا مشتاقٌ وعندي لوعةٌ
ولكنَّ مثلي لا يذاع له سرُّ

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى
وأذللتُ دمعاً من خلائقه الكِبْرُ (٢)

---

(١) شيمتك : طبعك وخلقك .

(٢) أضواني : عذّبني وشجاني . خلائقه : جمع خليقة وهي الطبع والصفة المميزة .

تكاد تضيء النـــار بين جوانحي
إذا هيَ أذكتها الصبابة والفِكرُ [1]

معلّلتي بالوصل والموت دونـــه
إذا بتُّ ظمآناً فلا نزل القَطْـرُ [2]

حفظتُ وضيّعتِ المودّة بيننـا
وأحسنُ من بعض الوفاءِ لكِ الغدْرُ

وما هـــذه الأيام إلاّ صحائف
لأحرفها ، من كفّ كاتِبها ، بشْرُ

هي والوشاة :

بنفسي من الغادين في الحيّ غادة
هواي لها ذنبٌ ، وبهجتها عُذْرُ

تروغ إلى الواشين فيّ ، وإن لي
لأذنابها عن كلّ واشيةٍ وَقْرُ [3]

---

(١) أذكتها : أشعلتها .

(٢) معللتي بالوصل : من تبسط لي الآمال في الوصال . القطر: المطر.

(٣) تروغ : تميل وتستمع . وقر : صمم .

بدوتُ وأهلي حاضرون ، لأنني
أرى أن داراً لستِ من أهلها قفرُ[1]

وحاربتُ قومي في هواكِ ، وإنهم
وإيايَ ، لولا حبُّك ، الماء والخمر

فإن يك ما قال الوشاة ولم يكن
فقد يهدم الإيمان ما شيّد الكفر

بين الشاعر والحبيبة :

وفيتُ وفي بعض الوفاء مذلةٌ
لإنسانةٍ في الحي شيمتها الغدر[2]

وقورٌ ، وريعان الصبا يستفزُّها
فتأرَنُ أحياناً كما أرِنَ المُهر[3]

---

(١) بدوت وأهلي حاضرون : اختلفت حياتي عن حياة قومي ، انصرفت عنهم وملت اليك .

(٢) شيمتها : طبيعتها وخلقها .

ويروى البيت أيضاً : « لفاتنةٍ » في الحي شيمتها الغدر .

(٣) أرن : نشط ومرح .

تسائلني : مَن أنت ؟ وهي عليمة
وهل بفتىً مثلي على حاله نُكُرُ

فقلت لها : لو شئتِ لم تتعنّتي
ولم تسألي عني ، وعندك بي خبر [١]

فقالت : لقد أزرى بك الدهر بعدنا
فقلت : معاذ الله بل أنتِ لا الدهر [٢]

وما كان للأحزان لولاكِ مسلكٌ
إلى القلبِ ، لكنّ الهوى للبِلى جسر

وتهلك بين الهزل والجدّ مهجةٌ
إذا ما عداها البين عذّبها الهجر [٣]

فأيقنتُ أن لا عزّ بعدي لعاشق
وأنّ يدي مما علقتُ به صفر [٤]

وقلّبت أمري لا أرى لي راحةً
إذا البين أنساني ألحّ بي الهجر

---

(١) التعنت : طلب المشقة .

(٢) أزرى به : عابه ووضع من قيمته ومنزلته .

(٣) البين : الفراق والبعد .

(٤) صفر : خاوية فارغة .

فعدت إلى حكم الزمان وحكمها
لها الذنب لا تجزى به ولي العذرُ

فخر واعتزاز بالنفس :

فلا تنكريني يا ابنة العمّ ، إنه
ليعرف من أنكرته البدو والحضر

ولا تنكريني ، إنني غير مُنكرٍ
إذا زلّتِ الأقدام ، واستنزل الذعر

وإني لجرّار لكل كتيبةٍ
مُعوّدةٍ أن لا يخلّ بها النصر

وإني لنزّال بكلّ مخوفةٍ
كثير إلى نزّالها النظر الشزْرُ[1]

فأظمأُ حتى ترتوي البيض والقنا
وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر[2]

ولا أصبح الحيّ الخلوف بغارة
ولا الجيش ، ما لم تأته قبلي النُّذر

---

(١) النظر الشزر : النظر بجانب العين مع الاعراض أو الغضب .
(٢) البيض : السيوف . القنا : الرماح . أسغب : أجوع .

ويا ربَّ دارٍ لم تخفني منيعـةٍ
طلعتُ عليهـا بالردى أنا والفجرُ

وحيٍّ رددت الخيل حتى ملكته
هزيماً ، وردّتني البراقع والخُمر [1]

وساحبـة الأذيال نحوي لقيتهـــا
فلم يلقهـا جافي اللقـاء ولا وعر

وهبتُ لهـا ما حازه الجيش كله
ورحت ولم يكشف لأبياتهـا ستر

ولا راح يطغيني بأثوابـــه الغنى
ولا بات يثنيني عن الكرم الفقر [2]

وما حاجتي بالمـال أبغي وفوره
إذا لم أصن عرضي فلا وفر الوَفر

(١) الخمر : جمع « خمار » وهو غطاء الرأس للمرأة .

(٢) يثنيني : يرلني ويدفعني .

قصة الأسر :

أسرتُ وما صحبي بعُزلٍ لدى الوغى
ولا فرسي مهرٌ ولا ربه غِمْرُ [1]

ولكن اذا حُم القضاء على امرىءٍ
فليس له بَرٌّ يقيه ولا بحر

وقال أصيحابي : الفرار أو الردى ؟
فقلت : هما أمران أحلاهما مرُّ

ولكنني أمضي لما لا يعيبني
وحسبك من أمرين خيرهما الأسر

يقولون لي بِعت السلامة بالردى
فقلت : أما والله ، ما نالني خسر

وهل يتجافى عني الموت ساعةً
إذا ما تجافى عني الأسر والضرُّ ؟

هو الموت فاختر ما علا لك ذكره
فلم يمت الإنسان ما حييَ الذكر

---

(١) العُزْل : جمع أعزل ، الذي لا سلاح معه . الغِمر : الجاهل ، غير المجرب .

ولا خـــير في دفع الردى بمذلة
كما ردَّها يوماً بسوءته عمرو [1]

يمنُّون أن خلّوا ثيـابي ، وإنما
عليّ ثيــابٌ من دمائهمو حمرُ

وقائمُ سيفٍ فيهمو اندقّ نصلُه
وأعقاب رمحٍ فيه قد حطّم الصدر

عودة إلى الفخر :

سيذكرني قومي. إذا جدّ جدُّهم
وفي الليلة الظلمـــاء يفتقد البدر

فإن عشتُ ، فالطعن الذي يعرفونه
وتلك القنا والبيض والضمَّر الشقر [2]

وإن متُّ فالإنسان لا بد ميّت
وإن طالت الأيام وانفسح العمر [3]

---

(١) السوءة : الفعلة القبيحة التي تجلب المذلة والعار .

(٢) القنا : الرماح . البيض : السيوف . الضمّر الشقر : الجيـاد الضامرة الشقراء اللون، كناية عن سرعتها الفائقة وكرم عنصرها .

(٣) انفسح العمر : امتدّ الأجل .

ولو سدّ غيري ما سددت اكتفوا به
وما كان يغلو التّبر لو نفق الصفر [1]

ونحن أناس لا توسُّط بيننــا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر [2]

تهون علينــا في المعــالي نفوسنــا
ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر .

أعزُّ بني الدنيا وأعلي ذوي العلا
وأكرم من فوق التراب ولا فخر [3]

* * *

---

(١) التبر : الذهب . الصفر : النحاس .

(٢) الصدر : الصدارة والرئاسة والسيادة .

(٣) من فوق التراب : الناس جميعاً .

يا ظبية البان

للشريف الرضي

لا يذكَر الشريف الرضي إلا ويُسرع إلى البال قوله :

ولقد مررتُ على ديارهمو
وطلولُهـا بيد البلى نَهْبُ

فوقفت حتى ضجَّ من لَغَبٍ
نِضْوي ، ولجَّ بعذْليَ الرَّكب

وتلفَّتَتْ عيني ، فمذ خفيت
عني الطلول تلفّت القلب

ويستحضر الخيال هذه الصورة الفريدة في شعرنا العربي القديم ، صورة مَن يمرّ على آثار أحبائه بعد رحيلهم ، وتختفي الطلول من أمام عينه ، ولا تستطيع العينان أن تريا بعد شيئاً ، هُنا يتلفت القلب ، فتمتد دائرة البصر ، ويبصر القلب بعد أن عجزت العينان .

والشريف الرضي أحد الأصوات الكبيرة في قافلة شعرنا العربي ، صوت له تفرده وأصالته وتمايزه ، وله أيضاً جلاله وجماله وعذوبته وتدفقه ، واقتداره الفني الذي يتكيء على حس مرهف ، ووجدان ذكي ، وقلب كبير متفتح .

تقول عنه كتب التراث إنه كان مهيباً بالغ الاعتداد بشخصيته ، وكنيته أبو الحسن ، وقد سمّي الشريف الرضي لأنه كان نقيب الأشراف ، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي ابن أبي طالب ، وهو صاحب الفضائل الشائعة والمكارم الذائعة . كما كانت تسند إليه إمارة الحج والمظالم ، حجّ بالناس مرات ، وكان أحد علماء عصره في الدين واللغة والأدب .

ويقول عنه القدماء إنه أشعر قريش ، لأن المجيد منهم ليس بمكثر والمكثر ليس بمجيد ، أما هو فقد جمع بين الإكثار والإجادة .

ونطالع في شعره ما يملؤنا يقيناً بأنه كان عزيز النفس رفيع الهمة .. يقول مخاطباً القادر بالله الخليفة العباسي (ولنضع في اعتبارنا أن الشريف الرضي كان نقيب الطالبيين نسبةً إلى آل طالب المطالبين بالخلافة) :

عطفاً ، أمير المؤمنين ، فإننـــا
في دوحة العليـاء لا نتفرقُ
مـــا بيننا يوم الفخار تفاوت
أبداً ، كلانا في المفـاخر معْرق
إلا الخلافة قدّمتك ، فإنني
أنا عاطلٌ منهـــا وأنت مطوّق

ُولد الشريف الرضي عـــام ثلاثمائة وتسعة وخمسين من الهجرة ، وتوفي عـام أربعمائة وستة . وخلال سنوات عمره السبع والأربعين، ترك الشريف ديواناً شعرياً ضخماً في جزأين، ومصنفات عدة ، أبرزهـا : المتشابه في القرآن . مجازات الآثار النبوية . نهج البلاغة للإمام علي . تلخيص البيـان عن مجازات القرآن . الخصائص . الحسن من شعر الحسن(مختارات من شعر ابن الحجاج) . أخبار قضاة بغداد . ورسائل الشريف الرضي في ثلاثة مجلدات . وكتاب سيرة والده .

أما كيف ترك لنـا نقيب الأشراف ، ونقيب الطالبيين الشريف الحسيب شعراً في الغزل كأرقّ وأعذب مـا يكون الشعر ، فهذا سؤال تكشف إجابته عن حقيقة هـذا الشاعر الكبير الذي لم يطمس النشاط الديني والشيعي شاعريتـه أو فنه .. ولكأني بـــه يتفنن في إخفاء عواطفه ومشاعره – حفاظـاً على مكانته الدينية ومنزلته بين قومه – فيأبى

شعره إلا أن يفضحه ، ويكشف الخفيّ المستور من أسراره وهواجس نفسه ونبضات قلبه ، وإلا فكيف قدّر له أن يقول عن حقيقة الشوق :

أقول – وقد أرسلتُ أول نظرة –
ولم أرَ من أهوى قريباً إلى جنبي
لئن كنتَ أخليتَ المكان الذي أرى
فهيهاتَ أن يخلو مكانك من قلبي
وكنت أظنُّ الشوق للبعد وحده
ولم أدر أن الشوق للبعد والقرب
خلا منك طرفي ، وامتلا منك خاطري
كأنك من عيني نُقلت إلى قلبي

وكيف استطاع أن يعبر عن « الحنين » في هذه الصورة الشعرية الفريدة ، العذبة الصياغة ، الجميلة الجرس والأداء :

أحنُّ إلى لقائك كل يومٍ
وأسأل عن إيابك كل وقتِ
وأذكر ما مضى ، فيغيض صبري
وتنفر عبرتي ، ويبوح صمتي
ولي قلب إذا ذكر التلاقي
تظلّم من يد البين المشتّ

بل كيف ذاب رقة ووجداً حين قال :

يا مقلقي ، قلقي عليـــــكا
وأظنـُّــه ذنبي إليـــكا

أنت الشفيق فلو جنيـ
ـت ، لمـــا أخذت على يديكا

أمسيتَ ثالث ناظـــريَّ
فكيف أقـــــذى ناظريكا

وكفـــــاك أني لست أعـ
ـقدُ خِنْصري إلا عليـــكا

* * *

والمتأمل في شعر الشريف يلاحظ على الفور حرصه على تأكيد معنى العفاف في غزليته ، وإن تكن رغبــات نفسه الدفينة وأشواقه الحرى ، وعواطفه الجامحة المشبوبة ، تتنزى من خلال تحفظاته ، وكيف ينسى أنـــه أمير الحج ونقيب الأشراف والقاضي الذي ينظر في المظالم والمرشح لإمـــارة المؤمنين ... كيف ينسى هذا كله وهو ينقل إلينا مثلاً حديث المضاجع فيقول :

خلوْنا فكانت عفـــة لا تعففٌ
وقد رُفعت في الحيِّ منـــا الموانع

سلوا مضجعي عني وعنها ، فإننا
رضينا بما يُخبرن عنا المضاجع

***

وُلد الشريف الرضي بعد وفاة أبي الطيب المتنبي بخمس سنوات ، وتلقى دراساته الأولى على أيدي أساتذة شديدي الإعجاب بالمتنبي، ولم يشهد في صباه أو شبابه حلقة من حلقات الدرس أو محفلاً من محافل الأدب إلا ولمس فيه الإعجاب بالمتنبي والحديث عن شعره، ومن هنا كان إعجابه الداخلي به، وترسّمه لخطاه ، واقتفاؤه لآثاره ، ثم معارضاته لأشهر قصائده ، ووقوعه على الكثير من معانيه وعباراته ، ولكن في خفة وذكاء ورشاقة ، ودون أن يُتّهم بالسرقة أو النقل .

بالإضافة إلى هذا ، يطالعنا في شعر الشريف أيضاً صياغة نقية ، مصقولة ، خالية من الشوائب ، بريئة من التكلف ، ويقول القدماء إنه كان عاكفاً على تهذيب شعره وتنخل ألفاظه وصيانة ديباجته من عيوب التعبير أو سقطات اللغة أو ضحالة المعاني وركاكة الصور وابتذالها . فجاء شعره – على كثرته – مستوياً ، متماثل القمم والمرتفعات ، معبراً عن حياته المليئة بالانفعالات والعواطف والمواقف المشحونة ، لذا كثر شعره في الأنفة والفروسية والطموح والتمدح بشرف الآباء والفخر بأجداده العظام والشكوى والعتاب ، والحب والغزل ، والبكاء على الأهل والأحبة ، ووصف تقلبات الزمان الى ذكرى

الحسين في مأساة عاشوراء ، إلى عاطفة الصداقة فيما كان بينه وبين أصدقائه من الإخوانيات العامرة الحارة .

ويكفيه فخراً، أنه من بين القلة القليلة من شعرائنا العرب، الذين لم يقبلوا المـال من أحد ، ولا اتخذوا شعرهم وسيلة أو أداة للتكسب المادي ، فكانت علاقاته مع الخلفـاء والملوك والأمراء علاقات ود وصداقة ، واحترام متبادل ، لذا فقد عرفت له عندهم حرمة وهيبة، ولقّبوه بالرضيّ ذي الحسنيين.

* * *

والآن إلى قصيدته الرقيقة : يا ظبية البان .

يا ظبية البان

يا ظبيةَ البان ، ترعى في خمائله
ليهنك اليوم أن القلب مرعاكِ[1]
المـــاء عنـدك مبذول لشاربه
وليس يرويك إلا مدمعي البـاكي

(١) البان : شجر معتدل القوام ورقــه ليّن كالصفصاف ، واحدته البانة . ليهنك : ليهنئك ، خففت الهمزة .

هبَّت لنا من رياح « الغور » رائحة
بعد الرُّقـــاد عرفناها بريَّاكِ [1]

ثم انثنينا إذا ما هزَّنا طرب
على الرحـــال ، تعللنا بذكراك

سهم أصاب ، وراميه بذي سلم ،
من بالعراق ، لقد أبعدت مرماك [2]

حكت لحاظك ما في الرئم من ملح
يوم اللقاء ، وكان الفضل للحاكي [3]

كأن طرفك يوم « الجزع » يخبرنا
بما طوى عنكِ من أسماء قتلاك [4]

أنت النعيم لقلبي والعـذاب له
فمـا أمرَّك في قلبي وأحلاك

عندي رسائلُ شوقٍ لست أذكرها
لولا الرقيب لقـد بلـَّغتُها فاك

---

(١) الغور : اسم موضع ، أو هـــو المنخفض من الأرض . الريا : الريح الطيبة .

(٢) بذي سلم : اسم موضع .

(٣) اللحـــاظ : جمع لحظ ، باطن العين . الرئم : الظبي الأبيض . حكت : أشبهت .

(٤) طرفك : عينك . الجزع : اسم موضع .

وعد لعينيك عندي ما وفيْتِ به
يا قرب مـا كذبت عينيَّ عيناكِ

سقى منىً وليالي «الخيف» ما شربت
من الغمام وحيَّاها وحيـاك[1]

إذ يلتقي كلُّ ذي ديْن .. وماطله
منـا ، ويجتمع المشكوُّ والشاكي[2]

لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا
مـا كان فيه غريم القلب إلاك[3]

هامت بك العين لم تتبع سواك هوىً
من أعـلم العين أن القلب يهواك

حتى دنا البين ما أحييتِ من كمد
قتلى هواك ، ولا فاديت أسراك

يا حبذا نفحة مرَّت بفيك لنـا
ونطفة غمست فيهـا ثناياك[4]

---

(١) الخيف : واد بين منى ومكة .

(٢) ماطله : مسوّفه ومؤجله .

(٣) السرب : سرب الظباء ، أي الحسان . يعطو : يرفـع رأسه ويديه . الأرحل : جمع رحل ، ما يوضع على الناقة ليمتطيه المسافر .

(٤) النطفة : الماء الصافي أو الرحيق الرضاب.

وحبذا وقفة والركب معتقل

على ثرىً وخَدتْ فيه مطاياكِ[1]

لو كانت اللمة السوداء من عُدَدي

يوم الغميم ، لما أفلتِّ أشراكي[2]

***

(١) معتقل : لا يستطيع السير لأن مطاياه معتقلة ، أي مشدودة الرأس الى الذراع . وخدت : سارت .

(٢) اللمة السوداء : الشعر الأسود ، كناية عن الشباب . الغميم : راد بين الحرمين قرب مكة .

يقول : لو كان الشباب عدّة لي لما تركتك تفلتين من حبالي .

اليتيمـــة

لدوقلـــة المنبجـيّ

طالعتُها لأول مرة في أحد مجلدات مجلة « الحديقة » التي كان يصدرها منذ أكثر من نصف قرن العالم الراحل مُحبُّ الدين الخطيب .. وقد صُدِّرت بهذه الكلمات : « القصيدة اليتيمة، نقلهـا العلامة الشيخ عبد العزيز الميْمني الراجكوتي من آخر نسخـة مخطوطة من المقامات توجد في الهند » . واستوقفتني القصيدة، ثم ما لبثت أن مَلَكَتْ عليَّ نفسي، وإن كان السؤال الملحُّ وقتها عليَّ : من هو دوقلة المنبجي هذا ، الذي تنسب إليه القصيدة اليتيمة ؟

وظللت بعد ذلك سنوات متصلة ، تطالعني – بين الحين والحين – أبيات من اليتيمة أجدها منتثرة هنا وهناك في أمهات كتب الأدب ، ومختارات الشعر العربي ، لكن العثور عليهـا كاملةً ظل شيئاً يشبه المستحيل، خاصة – كما عرفتُ فيما بعد–

أن بالقصيدة مقاطع أُضيفت إليها ، بفعل الروايات والنقل ، بها ما يخدش الحياء ويجرح الذوق العام ..

لكن الذي لم يختلف عليه اثنان ، أن القصيدة من عيون تراثنا الشعري .. وأن القدماء لما أدركوا جمالها وروعتها وأصالتها وتفردها أطلقوا عليها اسم « اليتيمة » أي التي لا شبيه لها ولا نظير .

والطريف أن اليتيمة ظلت عصوراً طويلة مجهولة النسب ، لا يُعرف اسم شاعرها الحقيقي .

فمن قائل هو الشاعر العباسي علي بن جبلة ، الذي قتله المأمون في أول القرن الثاني الهجري ..

ومن قائل : هو أبو نواس ، الشاعر العباسي الكبير، الذي اشتهر بالخمريات والمجون ، وأصحاب هذا الرأي يؤكدون أن القصيدة تحمل بصمات فنه وشاعريته .

ومن قائل : بل هو دوقلة المنبجي ، وهو شاعر لم تتحدث عنه كتب الأدب ، ولا يُعرف له شعرٌ سواها . أما « منبج » هذه التي ينتسب إليها الشاعر فهي بلدة بالشام نشأ فيها من الشعراء : أبو تمام والبحتري وأبو فراس الحمداني وغيرهم من أعلام الشعر والبيان . والطريف أيضاً أنهم اختلفوا فى اسم القصيدة :

فهي « اليتيمة » ، وهي « هند » ، وهي « دعد » ..

ثم جاء هذا الكشف عن مصدر القصيدة وحقيقة نسبتها وأصلها الكامل - كما نشرته مجلة الحديقة - ليحسم الأمر ، وينسب القصيدة إلى صاحبها ..

وهكذا لم تعد « اليتيمة » يتيمة النسب !

***

و « اليتيمة » تنطق بشاعرية شاعر أصيل مقتدر ، تفنّن في وصف محبوبته « دعد » ، فلم يترك شيئاً منها ، إلا وقد وصفه أدقّ وصف وأجمله ، وكأنه يقدّم صورة للجمال كما تعشّقه العربيُّ القديم،وحتى ليخيل لقارىء القصيدة أنه يتأمل لوحة فاتنة أبدعتها ريشة رسام مبدع .

رسم الشاعر في لوحته الفاتنة جسم محبوبته ، ووجهها ، وشعرها ، وجبينها ، وجيدها ، وزندها ، ومعصمها ، وغدائرها، وكل نبضة من نبضاتها ، ولم يفتْهُ أن يصف ذهوله وإطراقه أمام هذا المشهد الرائع من مشاهد الحب والجمال ، وأن يتحدث عن أنفته وعزته وكبريائه حين يعزُّ عليه الوصال وكأنه بذلك يقدّم لنا مثَل الفارس العربي النبيل يذوب في هواه صبابةً ووجداً ، ولكنه يترفع عزّة وإباء وشموخاً ، ويجلُّ نفسه عن ارتكاب الدنايا والصغائر .

والقصيدة - رغم التزامها في بنائها العام للمنهج التقليدي

للقصيدة العربية بدءاً بالوقوف على الأطلال ثم الحديث عن موضوع الحب وصفاً وشكوى ووجداً ، ثم انتهاءً بالفخر بالنفس وتأكيد معنى العزة والنخوة – إلا أن ما ينسكب عليها من ماء الشعر يجعلها بالغة الرقة والعذوبة ، ويجعل لها مذاقاً خاصاً في وجدان المتلقي ينأى به عن تصورها حبيسة هذا البناء التقليدي ، بما تتكشف عنه القصيدة من تصورات رحبة للخيال والحس العربي العاشق .

والآن إلى اليتيمة :

* * *

وقوفٌ على الأطلال :

هــل بالطلول لسائلٍ ردُّ
أم هل لهــا بتكلّمٍ عهدُ [1]

دَرَسَ الجديدُ ، جديدُ معهدها
فكأنمــا هي ريطة جرد [2]

---

(١) الطلول : جمع طل ، هي مــا يتخلف من الآثار والديار بعد زوالها .

(٢) درس : زال وأمحى . معهدها : ما عهد فيهـا من آثار الحياة والاقامة . ريطة جرد : أي مُلاءة بالية أو ثوب مهترىء .

من طول ما تبكي الغيوم على

عَرَصاتِها ، ويقهقه الرعدُ[1]

وتلُثُّ ساريةٌ وغاديةٌ

ويكرُّ نحسٌ خلفه سعد[2]

تلقاءَ شاميةٍ يمانيةٍ

لهما بمَوْرِ تُرابها سَرْدُ[3]

فكست بواطنها ظواهرها

نوراً كأن زهاءه برد[4]

فوقفتُ أسألها ، وليس بها

إلاّ المها ونقانق رُبد[5]

فتبادرت درر الشئون على

خدّي كما يتناثر العقد[6]

(١) عرصاتها : ساحاتها .

(٢) تلث : تدوم وتستمر أياماً . السارية والغادية : السحب المطرة.

(٣) مور ترابها : إثارة ترابها وتحريكه بشدة . سرد : تتابع . الشامية واليمانية : أسماء للسحاب المطر بحسب اتجاه قدومه .

(٤) الزهاء : النضرة . البرد : الثوب المخطط .

(٥) المهاء : جمع مهاة ، وهي البقرة الوحشية . النقانق : جمع نقنق: ذكر النعام . رُبد : لونها يختلط فيه السواد بكدرة .

(٦) درر : جمع درة : ما يدر من المطر واللبن ، والمراد هنا بدرر الشئون : دموع العينين المنهمرة .

صورة وصفية للمحبوبة :

لهفي على « دعد » وما حفلت

بالاً بحرّ تلهفي « دعـــدُ »

بيضاء قد لبس الأديم بهـــا

ءَ الحُسن، فهو لجِلدها جِلْد [1]

ويزينُ فوْديْهـا إذا حسَرتْ

ضافي الغدائر فاحمٌ جَعْد [2]

فالوجـه مثل الصبح مُبيضٌ

والشعر مثل الليـــل مسودٌ

ضدّانِ لمـا استجمعا حسُنـا

والضدٌ يظهر حُسنه الضدٌ

وكأنهـا وَسْنَى إذا نظرت

أو مدنف لمّا يُفِق بعد [3]

بفتور عينٍ مـا بهـا رمَدٌ

وبهـا تُداوى الأعين الرُّمدُ

---

(١) الأديم : الجلد .

(٢) الفودان : جانبا الرأس مما يلي الاذن . جعد : متجمع كثيف والمقصود به (الشعر) .

(٣) وسنى : أخذها النوم الشديد . المدنف : من ثقل عليه المرض .

وتُريك عِرنيناً يزيِّنه

. شَمَمٌ ، وخداً لونه الورد [1]

وتجيلُ مِسواك الأراك على

رتلٍ كأن رضابه الشهد [2]

والصدر منها قد يزينه

نهدٌ كحقّ العاج إذ يبدو

والمعصمانِ ، فما يُرى لهما

من نعمةٍ وبضاضةٍ زند

ولها بنان لو أردت له

عقداً بكفّك أمكن العقد

وكأنما سُقيت ترائبها

والنحرُ ماءَ الورد إذ تبدو [3]

وبصدرها حُقّان خلتهما

كافورتين علاهما نَدٌّ [4]

---

(١) العرنين : الأنف . الشمم : الترفع والكبرياء .

(٢) الرتل : الفم الجميل الأسنان في بياض ولمعان . الرضاب : المقصود به ماء الفم .

(٣) الترائب : عظام الصدر . النحر : أعلى الصدر .

(٤) الند : عود طيب الرائحة يتبخر به .

والبطن مطويّ كما طويت
بيضُ الرّياط يصونها المُلُدُ [1]

وبخصرها هيف يزينه
فإذا تنوءُ يكاد ينقدُ [2]

ولها هَنٌ رابٍ مجسّته
وعر المسالك، حشوه وَقْد

فإذا طعنْتَ طعنْتَ في لبدٍ
وإذا نزعْت يكادُ ينسدُ [3]

والتفّ فخذاها، وفوقهما
كَفَل – يجاذب خصرها – نهد [4]

فقيامها مثنى إذا نهضت
من ثقله، وقعودها فرد

والساقُ خرعبة منعمة
عبلت فطوق الحجل منسدُ [5]

---

(١) الرياط: جمع ريطة وهي الملاءة . الملد: جمع ملداء: المرأة الناعمة .

(٢) الهيف: ضمور البطن ورقة الخاصرتين . تنوء: تنهض بجهد ومشقة – تسقط . ينقد: ينكسر .

(٣) اللبد: الشعر الكثيف المتجمع . وهذا البيت والبيت السابق يقال إنهما دخيلان على القصيدة .

(٤) الكفل العجز أو الردف . نهد: البارز المرتفع .

(٥) خرعبة: الطويلة الناعمة . عبلت: اكتنزت وضخمت .

والكعب أدرم لا يبين له
حجمٌ ، وليس لرأسه حَدُّ[1]

ومشت على قدمين خُصرتا
والتفّتا ، فتكامل القد[2]

مـا عابها طول ولا قِصَر
في خلقها ، فقوامهـا قصد[3]

الشكوى من الهجر والصدود :

إن لم يكن وصل لديك لنا
يشفي الصبابة ، فليكن وعد[4]

قد كان أورق وصلُكم زمناً
فذوى الوصال وأورَق الصد[5]

لله أشـواقي إذا نزَحت
دار بنـا ، وطواكمو البعد

---

(١) أدرم : عظمه لا يبين من كثرة لحمه اللين الأملس .
(٢) القد : القوام .
(٣) قصْد : سوي معتدل ليس به طول أو قصر .
(٤) الصبابة : شدة الوجد والهيام .
(٥) أورق وصلكم : طاب وصالكم وواتى وأينع .

إن تتهمي فتهامة وطني
أو تنجدي، يكن الهوى نجدُ[1]

وزعمت أنك تضمرين لنا
وداً ، فهلّا ينفع الودُّ !

واذا المحب شكا الصدود ولم
يعطف عليه فقتله عمد

تختصّها بالود ، وهي على
ما لا تحب ، فهكذا الوجدُ !

فخر وكبرياء :

أو ما ترى طمريّ بينهما
رجل ألحّ بهزله الجد[2]

فالسيف يقطع وهو ذو صدأٍ
والنصل يعلو الهام لا الغمد[3]

---

(١) ان تتهمي أو تنجدي : أن تنتسبي الى تهامة أو نجد .

(٢) طمريّ : مثنى طمر، وهو الثوب البالي .

(٣) الهام : جمع هامة ، الرأس .

هل تنفعن السيف حليته
يوم الجلاد إذا نبا الحد [1]

ولقد علمتُ بأنني رجلٌ
في الصالحاتِ أروحُ أو أغدو

سلمٌ على الأدنى ومرحمةٌ
وعلى الحوادث هادن جَلْدُ [2]

متجلبب ثوب العفاف وقد
غفل الرقيب وأمكن الوِرْدُ [3]

ومجانبٌ فعل القبيح ، وقد
وصل الحبيب ، وساعد السعد

منعَ المطامع أن تثلّمني
أنّي لِمعْولِها صفاً صَلْدُ [4]

فأروحُ حُرًّا من مذلّتها
والحرُّ حين يطيعها عَبْدُ

---

(١) نبا : زاغ ولم يصب .

(٢) هادن : ساكن . جلد : صبور قوي .

(٣) الورد : الوصال والارتواء من الحب .

(٤) تثلمني : تحرجني وتعيبني. صفا : جمع صفاة : الصخرة أو الحجر الضخم . الصلد : الصلب القوي .

آليت أمدح مُقرِفاً أبداً
يبقى المديح وينفد الرِّفد [1]

هيهات ، يأبى ذاك لي سلفٌ
خمدوا ولم يخمد لهم مجد

والجَدُّ كِنْدة والبنون همو
فزكا البنون وأنجب الجَدُّ [2]

فلئن قفوت جميل فعلهمو
بذميم فعلي ، إنني وَغْدُ [3]

أجمل إذا حاولتَ في طلبٍ
فالجِدُّ يُغني عنك لا الجَدُّ [3]

نداء أخير :

ليكن لديكِ لسائلٍ فَرَجٌ
أو لم يكن .. فليحسن الردُّ !

---

(١) مقرفاً : غنياً ، كثير اقتناء المال . الرفد : العطاء .

(٢) زكا : أفلح ونجح .

(٣) قفوت : تبعت .

(٤) أجمل : اعتدل ولا تفرط . الجَدُّ : الحظ .

قمـــر في بغـــداد

لابن زُرَيْق البغدادي

وهذا شاعرٌ قتله طموحه ، يعرفه دارسو الأدب ومُحِبُّوه، لكنهم لا يعرفون له غير هذا الأثر الشعري الفريد يتناقـــله الرواة ، وتُعنى به دواوين الشعر العربي . فإذا مــا تساءلنا عن الشاعر، وعن سائر شعره فلن نظفر من بين ثنايا الصفحات بغير بضعة سطور تحـكي لنا مأساة الشاعر العباسي ابن زريْق البغدادي الذي ارتحل عن موطنه الأصلي في بغداد قاصداً بلاد الأندلس، علّه يجد فيها من لين العيش وسعة الرزق ما يُعوضه عن فقره ، ويترك الشاعر في بغداد زوجةً يحبها وتحبـــه كل الحب ، ويخلص لها وتخلص له كل الاخلاص ، من أجلها يهاجر ويسافر ويغترب . وفي الأندلس – كما تقول لنـــا الروايات والأخبار المتناثرة – يجاهد الشاعر ويكافح من أجـــل تحقيق الحلم ، لكنَّ التوفيق لا يصاحبه ، والحظ لا يبتسم له ، فهناك يمرض ، ويشتد به المرض ، ثم تكون نهايته في الغربة .

ويضيف الرواة بُعْداً جديداً للمأساة ، فيقولون إن هذه القصيدة التي لا يُعرف له شعر سواها وجدت معه عند وفاته سنة أربعمائة وعشرين من الهجرة ، يخاطب فيها زوجته ، ويؤكد لها حبه حتى الرمق الأخير من حياته ، ويترك لنا – نحن قراءه من بعده – خلاصةً أمينة لتجربته مع الغربة والرحيل ، من أجل الرزق ، وفي سبيل زوجته التي نصحته بعدم الرحيل فلم يستمع إليها ، ثم هو في ختام قصيدته نادم – حيث لم يعد ينفع الندم أو يجدي – متصدِّعُ القلب من لوعة وأسى ، حيث لا أنيس ولا رفيق ولا معين .

والمتأمل في قصيدة ابن زريق البغدادي لا بدّ له أن يكتشف على الفور رقة التعبير فيها ، وصدق العاطفة ، وحرارة التجربة . فهي تنمُّ عن أصالة شاعر مطبوع له لغته الشعرية المتفرّدة ، وخياله الشعري الوثاب ، وصياغته البليغة المرهفة ،ونفسه الشعري الممتد . والغريب ألا يكون لابن زريق غير هذه القصيدة ، مثلُه كمثل دوقلة المنبجي الذي لم تحفظ له كتب تراثنا الشعري غير قصيدته « اليتيمة » .. وهكذا استحقّ الشاعران فضل البقاء والذكر – في ذاكرة الشعر العربي كله – بقصيدة واحدة لكل منهما .. وبالمقابل ، ما أكثر الشعراء الذين لا تعيهم ذاكرتُنا ، بالرغم من أنهم سوّدوا مئات الصفحات وتركوا عشرات القصائد وزحموا الدواوين والمكتبات .

يستهلّ ابن زريق قصيدته بمخاطبة زوجته ، يناشدها ألا تعذله أو تلومه ، فقد أثر فيه اللومُ وآذاه ، وأضرّ به بدلاً من أن ينفعه ، إنه هنا يبسطُ بين يديها أسباب رحيله عنها وتركه لها طمعاً في الرزق الفسيح والعيش الهانيء الوثير ، وسرعان ما يعلن عن ندمه لأنّ ما أمله لم يتحقق ، وما رجاه من رزق وفير لم يتح له ..

ثم يلتفتُ ابن زريق التفاتةَ مُحبٍّ عاشق إلى بغداد ، حيث زوجته التي تركها دون أن يستمع إلى نصحها ، إنها مملكته التي أضاعها ولم يُحسنْ تدبيرها وعرشه الذي خلع عنه..

وفي ختام القصيدة ، يصف ابن زريق – في تعبيرٍ صافٍ مؤثّر ونسيج شعريّ مُحكم – واقع حاله في الغربة ، بين الأسى واللوعة ، والألم والندم ، وهنا ينفسح المجالُ التأمل ، وينطلق اللسان بالحكمة التي أنضجتْها التجربة ، ويَشرَقُ القلب بالدموع .

* * *

يقول ابن زريق البغدادي :

رفقاً به بدلاً من لومه :

لا تعذليه ، فإن العذل يولعه
قد قلتِ حقاً ، ولكن ليس يسمعه[1]

---

(١) لا تعذليه : لا تلوميه .

جاوزتِ في لومه حداً أضرّ به
من حيث قدرتِ أن اللوم ينفعه

فاستعملي الرفق في تأنيبه ، بدلاً
من عذله ، فهو مضنى القلب موجعه

قد كان مضطلعاً بالخطب يحمله
فضيّقت بخطوب الدهر أضلعه

يكفيه من لوعة التشتيت أن له
من النوى كلّ يوم ما يروّعه [1]

ما آبَ من سفر إلا وأزعجه
رأي إلى سفرٍ بالعزم يزمعه [2]

كأنما هو في حِلّ ومرتحل
موكّل بفضاء الله يذرعه [3]

لماذا رحل :

إنّ الزمان أراه في الرحيل غنىً
ولو إلى السدّ أضحى وهو يزمعه [4]

---

(١) النوى : الفراق والبعاد .
(٢) آب : رجع .
(٣) موكل : معنى ومسئول . يذرعه : يقطعه . الحل والمرتحل : الإقامة والرحيل .
(٤) يزمعه : يعتزمه وينتويه .

ومــا مجاهدة الإنسان توصله

رزقاً ، ولا دعة الإنسان تقطعه [1]

قــد وزع الله بين الخلق رزقهمو

لم يخلــق اللهُ من خلقٍ يضيّعه

لكنهم كلِفوا حرصاً ، فلست ترى

مسترزقاً ، وسوى الغايات تقنعه [2]

والحرص في الرزق – والأرزاق قد قُسمت –

بغي ، ألا إن بغي المرء يصرعه

والدهرُ يعطي الفتى – من حيث يمنعه –

إرثــاً ، ويمنعه من حيث يطمعه

كيف كان الوداع :

أستودعُ الله في بغــداد لي قمراً

«بالكرخ» من فلك الأزرار مطلعه [3]

---

(١) المجاهدة : مواجهة المصاعب والشدائد . الدعة: الأمان والسكون والاطمئنان .

(٢) كلفوا حرصاً : أطعمهم الحرص والرغبة في المزيد .

(٣) الكرخ : اسم موضع في بغداد . من فلك الأزرار : من بين ثنايا الثوب الذي يرتديه .

ودّعتـــه وبودّي لو يودّعني
صفو الحيـاة ، وأني لا أودّعه

وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحىً
وأدمعي مستهلات وأدمعـه [1]

لا أكذب الله ، ثوب الصبر مُنخرقٌ
عنـّي بفرقتـه ، لكن أرقـّعه

إني أوسع عذري في جنايته
بالبيْن عنه، وجـُرْمي لا يوسّعه [2]

رُزقتُ مُلكاً فلم أحسن سياسته
وكلُّ من لا يسوس المـُلك يخلعه

ومن غدا لابساً ثوب النعـيم بلا
شكرٍ عليـه ، فإن الله ينزعه

غربة وندم :

اعتضْتُ من وجه خلـّي ـبعد فرقته ـ
كأساً أُجرّع منها ما أُجرّعه [3]

---

(١) تشبث : استمسك . مستهلا ّت : سيالة متدفقة .
(٢) البين : البعد . جرمي : ذنبي .
(٣) اعتضت : استبدلت .

كم قائلٍ لي : ذقت البين ، قلت له :
الذنبُ والله ذنبي لست أدفعه

ألا أقمت فكان الرشد أجمعه ؟
لو أنني يوم بان الرشد أتبعه

إني لأقطع أيامي ، وأنفدها
بحسرةٍ منه في قلبي تُقطّعه [1]

بمن إذا هجع النوّام بتُّ له
- بلوعةٍ منه - ليلي، لست أهجعه [2]

لا يطمئن لجنبي مضجعٌ ، وكذا
لا يطمئن له مذ بِنتُ مضجعه [3]

ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني
به ، ولا أن بي الأيام تفجعه

حتى جرى البين فيما بيننا بيدٍ
عسراء ، تمنعني حظّي وتمنعه [4]

قد كنت من ريب دهري جازعاً فرِقاً
فلم أُوقَّ الذي قد كنت أحزعه [5]

---

(١) أنفدها : أمضيها وأنهيها .
(٢) هجع : رقد وآوى الى النوم .
(٣) بنت : غبت وارتحلت .
(٤) يد عسراء : يد باطشة قاهرة (من العسر والضيق والشدة) .
(٥) ريب الدهر : صروفه وأحداثه المفزعة . فرقاً : خائفاً متوجساً.

حنين إلى العهد القديم :

بالله يا منزل العيش الذي درَست
آثاره ، وعفَتْ مذْ بنتُ أربعه [1]

هل الزمان مُعيد فيك لذّتنا
أم الليالي التي أمضته تُرجعه

في ذمة الله من أصبحْتَ منزله
وجاد غيث على مغناك يُمرعه [2]

من عنده لي عهد لا يضيّعه
كما له عهد صدقٍ لا أضيّعه

ومن يصدّع قلبي ذكره ، وإذا
جرى على قلبه ذكري يصدّعه [3]

لأصبرنّ لدهرٍ لا يمتّعني
به ، ولا بيَ في حال يمتعه

(١) درست : زالت وأمحت . أربع : جمع ربع : الدار أو مكان الاقامة أو ما حولها .

(٢) الغيث : المطر الكثير النافع . المغنى : المنزل الذي غني به أهله . يمرعه : يخصبه وينضره .

(٣) يصدعه : يهدّه ويمزقه .

علماً بأن اصطباري مُعقبٌ فرجاً
فأضيقُ الأمر إن فكّرت أوسعه[1]

عسى الليالي التي أضنت بفرقتنا
جسمي ، ستجمعني يوماً وتجمعه

وإنْ تغل أحداً منّا منيّته
فما الذي بقضاء الله يصنعه ![2]

* * *

(١) معقب فرجاً : متبع فرجاً ويسراً .
(٢) تغل : تهلك . المنية : الموت .

مجلس الحبيب

لصفي الدين الحلي

يأتينا شعره في عصر انحطاط الدولة العربيـــة ، والشعر العربي ، قـَبساً متقداً بالشاعرية الأصيلة، وصوتاً فريد التعبير، رائق الأنغام ، صافي الديباجة ، قوي السبك ، فيعود الأمل من جديد في قافلة الشعر العربي .. وتصدح القوافي على وَترِ هذا الشاعر العراقي الأصل والنشأة ، المصريّ الروح والإقامة، صفي الدين الحلي ..

هو أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي ، ولد في مدينة الحِلـَّة بالعراق سنة ستمائة وسبع وسبعين من الهجرة، وإليها نُسب ، ومات في بغداد سنة سبعمائة واثنتين وخمسين من الهجرة ..

يقول عنه الرواة إنه أولع بنظم الشعر منذ حداثة سنه – على غير عادة شعراء عصره وأهل زمانه – عاهد نفسه ألا

يمدح كريماً وألا يهجو لئيماً ، ملتزماً بقوله إنه لا ينظم الشعر إلا فيما أوجب له ذكراً ..

ويطالعنا صفي الدين الحلي بشخصية طريفة فاتنة ، هي شخصية الفارس الشجاع المقاتل ، يقتحم المهالك والمخاطر ، مقداماً غير مبال أو هياب أو متردد .. تقع الفتنة في بلده « الحِلّة » بين أبناء أسرة هولاكو بسبب الصراع على العرش، فيخوض صفي الدين غمارها غير هياب ولا وجل ، ويظهر بطولة وشجاعة ينطق بها شعره ..

وفي ذلك العصر ، الذي سقط المجد والشرف العربي تحت أقدام هولاكو ، وخُرِّبت بغداد ، عاصمة الوطن العربي ، واحتل العراق ، نجد صفي الدين عربياً صادق العروبة ، يجهر بها في شعره ، ويتحمس دوماً لقومه ، ويبث فيهم روح الأنفة والطموح والعزيمة والتمرد ، وهي مزية لا نجدها عند شاعر سواه من شعراء ذلك العهد ، الذين كانوا يتسترون ويتوارون خوفاً وذعراً ورغبة في اتقاء الفتن والأخطار والحروب .

ثم يرحل صفي الدين إلى آل « أرتق » ملوك ديار بكر بن وائل ، فيمدح الملك المنصور نجم الدين أبا الفتح غازي بتسع وعشرين قصيدة سماها «درر النحور في مدائح الملك المنصور» وهي المعروفة - في ديوان الشعر العربي - بالأرتقيات ، ثم يتصل بالسلطان المؤيد عماد الدين اسماعيل ابن الملك الأفضل أيوب ثم بابنه شمس الدين أبي المكارم ، مادحاً ، مستحثاً

للهمم ، مصراً على إحيـــاء الروح العربية والنخوة العربية والشمم العربي ..

وتشتد الفتن ، ويضطرب نظام كل شيء ، ويفتقد الأمر والاطمئنان ، فيرحل صفي الدين إلى مصر ، ويقربه سلطانها الملك الناصر ، فيمدحه بعدة قصائد سماها المنصوريات .. ثم يجمع ديوانه في مصر بإشارة من ناصر الدين محمد بن قلاوون رئيس وزراء السلطان الناصر .

ويتأثر الشاعر تأثيراً عميقاً بإقامته في مصر ، لقد هدأت روحه وصفت لغته الشعرية ورقـّت وأخذت تميل إلى السلاسة والعذوبة ، وأصبح الفارس العنيد الجامح عاشقاً رقيقاً مرهفاً، تفتك به محاجر العيون وسهام الألحاظ وهيف الخصور،وتسبيه المجالس الناعمة ، ومظاهر الطبيعة الغناء ، ويفتن في وصف مجالس اللهو والأنس ، ويأسر القلوب بما أبدع من ربيعياته وزهرياته الجميلة ، التي يقول في إحداها :

ورد الربيعُ فمرحباً بوروده
وبنور بهجتــه ونورِ وروده

وبحسن منظــره وطيب نسيمه
وأنيـــق ملبسه ووشى بروده

فصل إذا افتخر الزمان ، فإنه
إنسان مقلته وبيت قصيـــده

وغزلياته الرقيقة التي يقول في إحداها :

عبث النسيم بقــــــــده فتأوّدا
وسرى الحياءُ بخدّه فتورّدا

رشأ تفرّد فيــــه قلبي بالهوى
لمـــا غـَـدا بجـماله متفردا

مغرى بإخلاف المواعد في الهوى
يا ليتـــه جعل القطيعة موعدا

حسن الغصون إذا اكتست أوراقها
ونراه أحسن مـــا يكون مجردا

* * *

والمتأمل في شعر صفي الدين الحلي يلمس على الفور ولعه بالبديع والمحسنات اللفظية والمعنوية التي شاعت في زمـانه لكنها ، على كثرتها ، لا تفسد مــاء شعره ورونق بهائه فشاعريته الخصبة واقتداره اللغوي وحسـه المرهف وذوقـه الرفيع تتغلب جميعها على هذه المحسنات والبديعيات،ولا تجعل القارىء يصدم كثيراً بتـكلـف أو مغالاة أو تكرار أو جفاف في التعبير ونبوٍّ في الصياغة .

ولعل القصيدة التي نطالعهـا له الآن ، أن تكون فريدة الطابع في ديوان شعرنا العربي كله ، فهي قصيدة تدور كلهـا

حول وصف مجلس أنيق استمتع فيه الشاعر بحبيبه، وافتنّ في تصوير كل ما أحاط بهما من مشاهد الطبيعة والسحر والجمال: الجمال الطبيعي والجمال الإنساني معاً، افتناناً لا يدع زيادة لمستزيد، في عبارة سهلة ممتنعة، وخيال طليق محلق، وموسيقى عذبة متراقصة، كما تكشف القصيدة، وهي طويلة، إن لم تكن من أطول قصائده، تكشف عن عمق عاطفته المشبوبة، وحبّه الساعر الملتهب، ووجده المبرّح، الذي صهر كبرياء الفارس الشجاع وأحالها زفرات عاشق مستهام.

* * *

يقول صفي الدين الحلي في قصيدته: « مجلس الحبيب »:

أذاب التبر في صافي اللجين
رشأ بالراح مخضوبُ اليدين [1]

وطاف على السحاب بكأس راحٍ
فطافت مقلتاه بآخرينْ

رخيم من بني الأعراب طفل
يجاذب خصره جبليْ حُنين

---

(١) التبر: الذهب. اللجين: الفضة. رشأ: غزال. مخضوب مصبوغ بالخضاب (الحناء). الراح: الخمر.

يُبدل نطقه ضـــاداً بدال
ويشرك عجمة قافـــاً بغيْن

يطوف على الرفاق من الحُميّا
ومن خمر الرضاب بمُسكرين [1]

اذا يجلو الحميّا والمحيـــا
شهدنا الجمع بـين النيّرين [2]

وآخر من بني الأعراب حفّت
جيوش الحسن منـه بعارضين

الى عينيه تنتسب المنـــايا
كما انتسب الرمـاح الى رديْن [3]

تلاحظ سوسن الخدين منـه
فيبدلهـا الحيـــاء بوردتين

ومجلسنا الأنيق تضيء فيـه
أواني الرّاحِ من ورقٍ وعـين

فأطلقنـــا فم الإبريق فيـــه
وبات الزُقّ مغلول اليدين [4]

---

(١) الحميا : سورة الخمر وشدتها . الرضاب : رحيق فم المحبوب .
(٢) النيّران : الكوكبان ، يقصد بهما : الخمر ووجه المحبوبة .
(٣) المنايا : جمع منية ، الموت . ردين : بـلد كانت تشتهر بصناعة الرماح ، يقال : رمح رديني .
(٤) الزُقّ : (بضم الزاي) الخمر ، وبكسرها : وعاء من الجلد يوضع فيه الماء أو الخمر .

وشمعتنا شبيه سنان تبر
توقّدُ في أكف الساقيين

إذا ملىء الزجاج بها وطارت
حواشي نورها في المشرقين

عجبت لبدر كأسٍ صار شمساً
يحفُّ من السقاة بكوكبين [1]

وقد صاغت يد الأزهار تاجاً
على الأغصان فوق الجانبين

بوردٍ كالمداهن في عقيق
وأقداحٍ كأزرار اللجين [2]

وقد جمعت لي اللذات لما
دنت منها قطوفُ الجنتين

وما أنا من هوى الفيحاء خالٍ
ولا ممن أحب قضيت ديني [3]

---

(١) يحف : يحاط .

(٢) المداهن : جمع دهن ، وهي قارورة الدهن ، العقيق : الخرز الأحمر .

(٣) الفيحاء : اسم لدمشق (وقد كان الشاعر دائم التنقل بين العراق والشام ومصر مشتغلاً بالتجارة) .

تملّك حبه قلبي وصدري
فأصبح سائراً في الخافقين

وأعوز مع دنوّي منه صبري
فكيف يكون صبري بعد بيْن [1]

إذا ما رام أن يسلوه قلبي
تمثل شخصه تِلقاءَ عيني [2]

ألا يا نسمة « السعديّ » كوني
رسولاً بين من أهوى وبيني

ويا نشر « الصّبا » بلغ سلامي
إلى الفيحاء بين القلعتين [3]

وحيِّ الجامعيْن وجانبيهـا
فقـد كانا لشملي جامعيْنِ

وقل لمعذبي هل من نِجـازٍ
لوعـديْ سالفيْـك السّالفين [4]

---

(١) البين : الفراق والبعاد . أعوز : تعذّر وامتنع .

(٢) تلقاء عيني : أمام عيني .

(٣) النشر : الريح الطيبة . الصّبا : ريح ناعمة تهب من الشرق .

(٤) نجاز : إنجاز وتحقيق .

سميُّك كان مقتولاً بظـــلم
وأنت ظلمتني وجلبت حيني [1]

وهبتك في الهــوى روحي بوعد
وبعتك عامـــداً نقـــداً بدين

وجئتُ وفي يدي ، كفني وسيفي
فكيف جعلتها خُفـَّيْ حنين ! [2]

ولِمْ صيّرت بعدك قيـــد قلبي
وكان جمـــال وجهك قيد عيني ؟

فصرنا نشبـــه النسريْن بعـــداً
وكنـــا ألفـــةً كالفرقدين [3]

علمت بأن وعدك صـــار ميْنـــاً
لزجـــري مقلتيـــك بصارمين [4]

---

(١) حيني : هلاكي وموتي . سميك : من اسمه على اسمك .

(٢) حنين : يضرب به المثل عند العرب في العودة صفر اليدين دون أي كسب .

(٣) الفرقدان : نجمان متجاوران في السماء .

(٤) مينا : كذباً وزوراً .

وقلت وقد رأيتك : خاب سعيي

لكون البدر بين العقربين

فلِمْ دلَّيْتني بحبال زورٍ

ولِمْ أطمعتني بسراب مينٍ [1]

وهلّا قلت لي قولاً صريحاً

فكان المنع إحدى الراحتين

عرفتك دون كل الناس ، لما

نقدتك في الملاحة نقد عين [2]

وكم قد شاهدتْكَ الناس قبلي

فما نظروك كلهمو بعيني

وطاوعت الفتوة فيك حتى

جعلتك في العلاء برتبتين

فلما أن خلا المغنى وتبنا

عُراةً بالعفاف مؤزّرينْ [3]

---

(١) دليتني بحبال زور : أطمعتني كذباً في الري والسقيا .

(٢) نقدتك : فحصتك واختبرتك وميزتك .

(٣) المغنى : المكان أو الدار التي تضمنا . مؤزر : ملتف بإزار وهو كل ما يستر الجسم .

قضينـا الحج ضمـاً . واستلامـاً
ولم نشعر بمـا في المشعريْنِ

أتهجرني وتحفظ عهــد غيري
وهل للموت عذرٌ بعد دينِ

وقلت : الوعد عند الحرّ ديْن ،
فكيف مطّلْتني وجحدت عيني [1]

إذا مـا جـاء محبوبي بذنب
يسابقه الجمــــــال بشافعين

وقلت : جعلت كلّ الناس خصمي
لقـد شاهدت إحدى الحالتين

فكان النـاس قبل هواك صحبي
فهــل أبقيْتِ لي من صاحبين ؟

بمادي أطمـع الأعداء حتى
رأوْكَ اليوم خزر الناظرين [2]

وهـلّا طالعوك بعـين سوء
وأمري نافــذ في الدولتين [3]

---

(١) مطلتني : سوّفت بوعدي ولم تف به ..
(٢) خزر الناظرين : ضيق العينين لأنه ينظر بمؤخريها .
(٣) الدولتان : يقصد بها السيف والقلم أي أنه فارس شاعر .

وما خفقت جناح الجيش . إلا
رأوني ملء قلب العسكرين

لئن سكنت إلى « الزوراء » نفسي
فإنّ القلب بـين محرّكين [1]

هـوى يقتادني لديار بكر
وآخر نحو أرض الجامعين [2]

سأسرع نحو رأس العين خطوي
وأقصدهـا على رأسي وعيني

وأسرح في حمى « جيرون » طرفي
وأربع في . رياض النيّرين [3]

فليس الخطبُ في عيني جليـلا
إذا قابلتـه بالأصغرين [4]

---

(١) الزوراء : مدينة بغداد ؛ سميت بهذا الاسم لازورار قبلتها (بها عوج) . بين محركين : بين عاملين قويين يتجاذبانه .

(٢) أرض بكر : العراق . أرض الجامعين : دمشق .

(٣) جيرون : أحد أبواب دمشق القديمة. أسرح طرفي : أقلب نظري. أربع : أستمتع بالربيع .

(٤) الأصغران : هما اللسان والقلب .

فيا مَن بان لما بان صبري
وحاربني رقــادُ المقلتين

تنغص فيك « بالزوراء » عيشي
وبُدّل زينُ لذّاتي بشين [1]

وما عيشي بها جَهْماً ، ولكن
رأيت الزّين بعدَك غير زين [2]

* * *

(١) الشين : ضد الزين . والزوراء : من أسماء بغداد .

(٢) الجهم : العابس المشوب بالكدر والاغتام .

[أضحى التنائي]

لابن زيدون

هو أشهر صوت شعري انطلق في ربوع الأندلس ، مغرداً ، مردّداً أحلى القصائد والمقطوعات ، شاعراً ووزيراً وعاشقاً مستهاماً ، وسجيناً وهارباً ومُطارداً ، وساعياً من بلدة إلى بلدة ومن حاكم إلى حاكم ، وأتيح لشعره من الذيوع ما لم يتح لغيره من شعراء الأندلس – ذلك هو ذو الوزارتين : الكاتب الشاعر الرقيق : ابن زيدون عاشق ولاّدة بنت المستكفي ، وبحتريُّ الغرب في رأي الكثيرين – تشبيهاً له ببحتريّ الشرق – في رقة تعبيره وروعة أساليبه وانطلاق خياله وأصالة فنه وقدرته على التحليق الشعري .

وُلد ابن زيدون في قرطبة قرب ختام القرن الرابع الهجري – سنة ثلاثمئة وأربع وتسعين – وبها تثقف وأتقن فنّ الأدب : شعره ونثره ؛ ثم اتصل بابن جهور وصار وزيره وكاتبه الأول حتى كان حبُّه لولادة ومزاحمة ابن عبدوس له في

حبها ، ومكيدته له عند ابن جهور التي انتهت بسجنه ، ومن السجن يرسل ابن زيدون أناتٍ مستعطفة وقصائد مليئة بالشكوى والمرارة والرجاء ، فلا يلتفت إليه أحد - وينجح ابن زيدون في الفرار من السجن ومغادرة قرطبة ، ثم يعود إليها بعد أن تُوفي أبو الحزم بن جهور وتولى الحكم ابنه الوليد، الذي يُعيده إلى سابق مكانته ومنزلته ويجعله سفيراً بينه وبين ملوك الطوائف .

لكن الحسد والحقد والدسائس تُلاحق ابن زيدون من جديد ، فينقلب عليه الوليد ، ويضطر إلى الفرار من قرطبة ثانية ، ويتنقل في الأندلس ، حتى يُلقي عصا التسيار لدى المعتضد حاكم إشبيلية ، ويموت المعتضد ، فيصبح ابن زيدون وزير ابنه « المعتمد » الذي كان شاعراً ، فيعلى مقام ابن زيدون ، ويتألق نجمه ، وتلتمع مواهبه وتزكو شاعريته ، وتدور بين الأمير ووزيره مطارحات شعرية كثيرة ، ثم يتم للمعتمد الاستيلاء على قرطبة موطن ابن زيدون وينتقل إليها ويجعلها عاصمة ملكه .. وتثور في إشبيلية فتنة طائفية بسبب اليهود فيرسل المعتمد ابن زيدون لتهدئتها بما له من منزلةٍ في قلوب الإشبيليين ، لكن الشاعر الذي كان قد هرم وشاخ وأنهكه المرض لا يكاد يصل إلى إشبيلية حتى تلحّ عليه الحمى ويموت فيها سنة أربعمائة وثلاث وستين من الهجرة .

هذه الحياة العاصفة المتقلبة ، وهذه الأحداث الجسيمة

المتتالية ، صقلت وجدان ابن زيدون وألهبت قدرته الشعرية ، وانعكست في شعره تفنّناً في الشكوى والحنين والتأمل والنظر في مصائر الأيام وتقلب الزمان . لكن أبعدها غوراً في نفسه هو حبه لولادة بنت المستكفي ، التي كانت تُقرّبه حيناً ثم تقرب غريمه ومنافسه ابن عبدوس حيناً آخر . ومن أجل ولادة كتب ابن زيدون نونيته الرائعة – أشهر قصائده على الإطلاق – والتي عارضها أحمد شوقي وهو يعاني بدوره مرارة النفي والاغتراب في أسبانيا بنونيته التي مطلعها :

يا نائح الطّلْحِ أشباهٌ عوادينا
نأسى لواديك أم نشجى لوادينا

والتي جعلت كثيرًا من المولعين بالمقارنات يتوقفون عند القصيدتين ، تأملاً وتحليلاً وتقييماً ومقارنة ، كما توقفوا عند السينيتيْن : سينية البحتري وسينية شوقي للسبب نفسه .

يتميز شعر ابن زيدون بالعذوبة وتوافر النغم الموسيقي والسهولة، كما يتميز بالانسياب والاسترسال والتدفق في طواعية ويُسْر ، ودون جهد أو إعنات ، شأن الشاعر المطبوع الذي يمتح من معينٍ صاف لا ينضب ، وشعره في الغزل يتميز بالنعومة والبراعة في التصوير، تصوير خلجات النفس ومكنون أسرارها ، ولوعة المحب الصادق في معاناته ومكابدته ، كما يتميز بمزجه الغزل بوصف الطبيعة ، مما أعطى لقصائده في الحب إطارها الطبيعي المشرق ، وجعلها شبيهة باللوحات

المصوّرة ، الناطقة بالفن الرفيـــع والشعور الحيّ المرهف ، والوجد المتقد المبرّح ..

يقول الدارسون لحياة ابن زيدون وشعره ، إنــه كتب نونيته هذه وهو هارب من السجن بعد أن يئس من إقناع ابن جهور بإطلاق سراحــه ، وأصبح بعيداً عن مركز الوزارة المرموق ، وتلفـّت يبحث عن ولادة فألفى نفسه بعيداً عنها أيضاً .. ولقد عادت إليه حريته بالهرب من السجن ، ولكنه ما يزال يعاني غربتين أو معضلتين ، الوزارة التي يصبو إليها ، والتي يعتبر عودته إليها تصحيحاً لمسار حياته وتكريماً لذاته ، وولادة التي بذل لها نفسه وعصارة قلبه وخلاصة شعره والتي يخشى أن يفقدها إلى الأبد ..

إن الشاعر العاشق يستعطف محبوبته وضالته ويُذكرهـا بأيامها الماضية ، لعلها ترقُّ وتلين ، فيعود ثانية ما كان بينهما من ريّق الوصال ، وأنيس الوداد ..

يقول ابن زيدون مخاطباً ولادة ..

استهلال وتوجـــع :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا

وناب عن طيبِ لقْيانا تجافينـا

ألا، وقد حان صبحُ البيْنِ ، صبَّحنا
حينٌ ، فقام بنا للحيْنِ ناعينا [1]

من مبلغُ الملبِسينا بانتزاحهمو
حُزناً مع الدهر لا يَبْلَى ويُبلينا

أن الزمان الذي ما زال يضحكنا
أُنساً بقربهمو قد عاد يُبكينا

غيظ العدا من تساقينا الهوى، فدَعوا
بأن نَغَصَّ فقال الدهرُ آمينا

فانحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا
وانبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا [2]

وقد نكون وما يُخشى تفرُّقنا
فاليومَ نحنُ وما يُرجى تلاقينا

شماتة الحساد :

يا ليت شعري ، ولم نعتب أعاديكم
هل نال حظاً من العتبى أعادينا [3]

---

(١) الحين : الهلاك . البين : الفراق .

(٢) انبتّ : انقطع .

(٣) نعتب : نرضى ، والعتبى : الرضا .

لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
رأياً ، ولم نتقلد غيره دينا

ما حقنا أن تقرّوا عين ذي حسدٍ
بنا ، ولا أن تسرّوا كاشحاً فينا [١]

كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه
وقد يئسنا فما لليأس يغرينا

وفاء على العهد :

بنتم وبنّا ، فما ابتلّت جوانحنا
شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا [٢]

نكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الأسى لولا تأسّينا [٣]

حالت لفقدكمو أيامنا فغدت
سوداً ، وكانت بكم بيضاً ليالينا [٤]

---

(١) الكاشح : العدو المبغض . تقرّوا : تسعدوا .
(٢) بنتم وبنا : أي ابتعدتم وابتعدنا . الجوانح : جمع جانحة ، وهي الضلع ، والمراد بالجوانح ما تضمه من القلب والحشا الملتهب بالحب . ولا جفت مآقينا : أي ولا جفت عيوننا من الدمع والبكاء عليكم .
(٣) التأسي : التصبّر .
(٤) حالت : تغيرت من أبيض الى أسود .

إذ جانب العيش طَلْقٌ من تآلفنا

ومورد اللهو صافٍ من تصافينا

وإذ هصرنا فنون الوصل دانيةً

قطافها ، فجنينا منه ما شينا [1]

ليسق عهدكمو ، عهد السرور ، فما

كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

لا تحسبوا نأيكم عنّا يغيّرنا

إن طالما غيّر النأي المحبينا [2]

والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً

منكم ، ولا انصرفت عنكم أمانينا

ولا استفدنا خليلاً عنكِ يشغلنا

ولا اتخذنا بديلاً منكِ يُسلينا

تحية واستعطاف :

يا ساريَ البرق غادِ القصر واسقِ به

من كان صِرف الهوى والود يسقينا [3]

---

(١) هصرنا : جذبنا وأملنا . فنون الوصل: أنواعه وألوانه . قطافها : ثمارها . ويروى : قطوفها .

(٢) نأيكم : بعدكم .

(٣) غاد القصر : اسقه وأمطره غدوة (أول النهار) . صرف الهوى: خالص الهوى .

واسأل هنالك هل عنى تذكُّرنا
إلفاً تذكُّره أمسى يُعنّينا [1]

ويا نسيم الصّبا بلّغ تحيّتنا
من لو على البعد حيًّا كان يحيينا

فهل أرى الدهر يقضينا مساعفةً
منه ، وإن لم يكن غِبًّا تقاضينا [2]

صورة وصفية لولّادة :

ربيبُ مُلكٍ كأنّ الله أنشأه
مِسكاً ، وقدّر إنشاء الورى طينا

أو صاغه ورقاً محضاً ، وتوّجه
من ناصع التبر إبداعاً وتحسينا

إذا تأوّد آدتْه رفاهيةٌ
تُومُ العقود ، وأدمته البُرَى لينا [3]

---

(١) عنى : أهمّ وأضنى

(٢) الغب : الزيارة بعد أيام (المتقطعة) .

(٣) تأود : تثنى وتمايل . آدته : أثقلته . تؤم العقود : عقود مزدوجة من اللؤلؤ . البُرى : الخلاخيل .

كانت له الشمس ظِئراً في أكِلَّتهِ
بل ما تجلّى لها إلا أحايينا [1]

كأنما أثبتتْ في صحنِ وجنته
زُهْرُ الكواكب تعويذاً وتزيينا [2]

ما ضرَّ أن لم نكن أكفاءه شرفاً
وفي المودة كافٍ من تكافينا

يا روضة طالما أجنت لواحظَنا
ورداً جلاه الصبا غضّاً ونسرينا[3]

ويا حياة تملّينا بزهرتها
منىً ضروباً ولذاتٍ أفانينا [4]

---

(١) ظئراً : مرضعة . الأكلة : الستائر الرقيقة (جمع كلة) .

(٢) زهر الكواكب : النيرة المشرقة (جمع أزهر) .

(٣) أجنت لواحظنا : جعلتها تجني وتقطف . النسرين : نوع من الورود أكثر ما يكون أبيض الزهر عطر الرائحة .

(٤) تملينا : تمتعنا . ضروباً وافانيناً : ألواناً وأنواعاً . المنى : جمع منية .

ويا نعيمــاً خطرنا من غضارته

في وشي نُعمى سحبنا ذيله حينا[1]

لسنا نسميك إجلالاً وتكرمةً

وقدرُك المعتلى عن ذاك يغنينا

إذا انفردت وما شوركت في صفة

فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبيينا

يا جنة الخلد أبدلنا بسدْرتها

والكوثر العذب زقوماً وغِسلينا[2]

كأننا لم نبتْ والوصلُ ثالثنا

والسعد قد غضَّ من أجفان واشينا

إن كان قد عزَّ في الدنيا اللقاء بكم

في موقف الحشر نلقاكم ويكفينا

---

(١) غضارته : نضارته ورونقه والنعمة والسعة . الوشي : نوع من الثياب الحريرية المنقوشة .

(٢) سدْرتها : أي سدرة المنتهى ، شجرة عن يمين العرش في السماء . الزقوم : شجرة في جهنم منها طعام أهل النار . الغسلين : ما يسيل من جلود أهل النار .

ويروى البيت : بسلسلها بدلاً من بسدرتها ، ومعناه : المــاء العذب البارد .

سرّانِ في خاطر الظلماء يكتمنا
حتى يكادَ لسانُ الصبح يفشينا (١)
لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت
عنه النُّهى وتركنا الصبر ناسينا

لوعة وأسى :

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سُوراً
مكتوبةً وأخذنا الصبر تَلْقينا
أمـــا هواك فلم نعدل بمنهله
شِرْبا ، وإن كان يروينا فيظمينا (٢)
لم نجف أفق جمالٍ أنت كوكبُه
سالينَ عنه ، ولم نهجره قالينا (٣)
ولا اختياراً تجنبناه عن كثبٍ
لكن عدتنا على كرهٍ عوادينا (٤)

---

(١) يفشينا : يفضحنا ويشي بنا ويعرضنا للأنظار .
(٢) الشرب : المورد العذب الماء .
(٣) لم نجف : لم نفارقه ونبتعد عنه كراهيةً . قالينا: أي مبغضينا .
(٤) عن كثب : عن قرب . عدتنا العوادي : أي صرفتنا وشغلتنا أحداث الدهر وصروفه .

نأسى عليك إذا حُثَّت مشعشعةً
فينا الشمولُ وغنَّانا مغنينا [1]

لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا
سيما ارتياحٍ ، ولا الأوتار تلهينا

نداء أخير :

دومي على العهد – ما دمنا – محافظةً
فالحرُّ من دان إنصافاً كما دينا

فما استعضنا خليلاً منك يحبسنا
ولا استفدنا حبيباً عنك يثنينا [2]

ولو صبا نحونا من عُلوِ مطلعه
بدر الدجى لم يكن حاشاك يُصبينا [3]

أولي وفاءً وإن لم تبذلي صِلةً
فالذكرُ يقنعنا ، والطيفُ يكفينا

---

(١) مشعشعة : ممزوجة بالماء . الشمول : من أسماء الخمر .

(٢) استعضنا : استبدلنا . يثنينا : يردنا ويصرفنا ويروى : يغنينا بدلاً من يثنينا .

(٣) صبا : مال . يصبينا : يجعلنا نعشقه ونهيم به .

وفي الجواب متاع إن شفعتِ به
بيض الأيادي ، التي ما زلتِ تولينا[1]

عليك منّا سلام الله ما بقيتْ
صبابة بك تُخفيها ، فتخفينا[2]

***

(١) تولينا : تعطين وتمنحين . ويروى : اقتناع بدلاً من متاع .

(٢) الصبابة : الشوق والولع الشديد . ويروى: صبابة منك بدلاً من صبابة بك .

يا ليلُ الصبُّ متى غدُه ؟

للحُصْري القيرواني

وهذه قصيدة من عيون الشعر العربي ، ذاعت شهرتها في أندية الأدب ومجالس الغناء وتناقلها الناس جيلاً بعد جيل ، ولشهرتها ودورانها ، فقد عارضها شعراء كثيرون في عصور متتابعة ، كل منهم يحاول أن يتجاوزها فناً وشاعرية ، ومن أشهر الذين عارضوها : أحمد شوقي شاعر العصر الحديث ، بقصيدته التي يقول فيها :

مضناكَ جفاه مرقدُهُ
وبكاهُ ورحّم عوّدُهُ

والتي ذاعت هي الأخرى واشتهرت في أندية الأدب ومجالس الغناء ، وتناقلها الناس ، وأخذوا يوازنون بينها وبين قصيدة الحُصْري ، ولهم في هذه الموازنات دروب وفنون ، وأحاديث ذات شجون .

تلك هي قصيدة « يا ليل الصب » للشاعر الضرير الحصْري القيرواني ، وهو أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري ، ولد في القيروان عام أربعمائة وعشرين من الهجرة ، وقضى فترة من صباه وشبابـــه في القيروان ، ثم غادرها وهو على مشارف الثلاثين بعد أن أجاد فن الشعر وعلْم القراءات ودرس الدين والشريعة. وكان خروجه من القيروان بعد نكبتها التي خربتها سنة أربعمائة وتسع وأربعين في أعقاب الخلاف الذي نشب بين الفاطميين والمعزّ بن باديس والذي أدى إلى انقضاض قبائل بني هلال وبني سُليم على القيروان ، فتشتت أهلوها منها ، وخرج أدباؤها وعلماؤهـا ، فمنهم من ذهب إلى صقلية كابن رشيق ، ومنهم من توجـه إلى الأندلس كابن شرف القيرواني ، أمـــا الحصري فكان خروجه إلى « سِبْتة » ، فاستقر بها زماناً .. واتصل في الأندلس بعدد من الأمراء مادحاً ، ونائلاً لجوائزهم وهباتهم وعطاياهم .

ثم عاد الحصري من الأندلس إلى المغرب ، غير أنه استقر في مدينة طنجة ، حتى كانت وفاته سنة أربعمائة وثمان وثمانين من الهجرة .

يقول عنه ابن بسام في كتابه « الذخيرة » كان أبو الحسن الحُصْري بَحْرَ براعةٍ ورأس صناعة وزعيم جماعة ، وقد طرأ على الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعـــد خراب وطنه القيروان ، والأدب بأفق الأندلس يومئذ، نافق السوق،

مغمور الطريق، فتهاداه ملوك الطوائف تهادي الرياض بالنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم .

ولكنه فيما نقل لم يطمئن هناك ، فاحتمل على مضض بَيْن زمانه ، وبُعْدَ قطره ، ثم اشتملت عليه مدينة طنجة بعد خلع ملوك الطوائف وتوفي بها رحمه الله .. وهو القائل :

أقول له وقـــد حيَّا بكأسٍ
لهـــا من مِسْكِ رقته ختامُ
أمن َخديْكَ تـُعصرُ ؟ قال : كلاَّ
متى ُعصرت من الوَرْدِ المُدامُ !

ويروون — أيضاً — أنه كان خبيراً بأسرار اللغة العربية، فإنَّ تآليفه في علم القراءات تدلُّ على ذلك ، وأنه كان بصيراً بشئون الحياة ، فإنَّ في الاغتراب وصُحبة الأمراء والملوك عوْناً على فهم دقائق الوجود » ..

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن هي أشهر قصائد الحصري ، وقد تناول فيها الشاعر بأسلوبه المرهف ولغته الرقيقة شؤونًا شتى مما يدور عادة على لسان المحبين ، ويفضح أسرار نجاواهم ومكنون قلوبهم .. تكلـّم عن طول الليل ، وطيف الخيال ، وخمر الرضاب ، وسيف المقـــلة وجناية العين وحمرة الخـد واستعطاف الحبيب وفنــــاء المحب . كل ذلك في إطـار من

الشاعرية الصادقة ، والتعبير البليغ الموحي ، والخيال السامي الطليق .

يقول الحصْري في قصيدته : « يا ليلُ : الصبُّ متى غدُه ؟ » .

يا ليلُ : الصبُّ متى غده ؟
أقيامُ الساعةِ موعدُه [1]

رقدَ السمّارُ فأرقَّه
أسفٌ للبينِ يُردّدُه [2]

فبكاهُ النجمُ ورقّ له
مما يرعاهُ ويرصُدُهُ

كَلِفٌ بغزالٍ ذي هَيَفٍ
خوْفُ الواشينَ يُشرّدُه [3]

نصبت عيناي له شَركاً
في النوم فعزّ تصيّدُه [4]

---

(١) الصب : العاشق المستهام .

(٢) البين : الفراق والبعاد .

(٣) كلِف : مولع ومتيم ، الهيف : رقة الخصر وضمور البطن ورشاقة القوام . يُشرده : يبعده ويجعله لا يقرّ في مكان .

(٤) الشَّرك : حبائل الصيد ، المصيدة . عزّ : امتنع وصعبَ .

وكفى عجباً أنّي قَنِصٌ

للسِّرْبِ سباني أغْيَدُهُ (١)

صَنَمٌ للفتنة منتصبٌ

أهواه ولا أتعبّده (٢)

صاحٍ ، والخمرُ جَنَى فمِهِ

سكران اللحظِ معربدُه (٣)

ينضُو من مقلته سيفاً

وكأنّ نعاساً يغمده (٤)

فيريقُ دمَ العشاق به

والويل لمن يتقلّده (٥)

كلّا ، لا ذنْبَ لمن قتلت

عيناهُ ، ولم تقتلْ يدُه

* * *

(١) قنص : صياد . سباني : صادني وأسرني بحسنه . الأغيد : الناعم المتثني ، المقصود به الحبيب .

(٢) صنم للفتنة : تمثال للفتنة .

(٣) جنى فمه : ثمرة فمه . اللحظ : باطن العين .

(٤) ينضو : يستل وينزع .

(٥) يريق : يسفك ، يتقلده : يحمله .

يا من جحَدتْ عيناه دمي

وعلى خدَّيه تورُّده [1]

خدّاك قد اعترفا بدمي

فعلام جفونك تجحدُهُ

إنّي لأعيذُكَ من قتلي

وأظنّك لا تتعمّدُهُ [2]

باللهِ هب المشتاق كرًى

فلعلّ خيالك يسعده [3]

ما ضرّك لو داويتَ ضَنَى

صبٍّ يضنيك وتبعده

لم يُبْقِ هواك له رمقاً

فليبْك عليه عُوّده [4]

وغداً يقضي أو بعد غدٍ

هل من نظرٍ يتزوّدُهُ [5]

---

(١) جحدت : أنكرت . تورده : احمراره ، والمقصود الاشارة الى حمرة دم العاشق المقتول .

(٢) أعيذك : أنزهك .

(٣) هب : امنح ، الكرى : النوم .

(٤) عُوّده : جمع عائد ، زائر المريض .

(٥) يقضي : يهلك ويموت . يتزوده : يستمتع به وينال .

يا أهلَ الشوق لنا شَرَقٌ
بالدمع يفيضُ مُورِّدُهُ [1]

يهوى المشتاقُ لقاءكمو
وصروف الدهر تُبعِّده [2]

ما أحلى الوصْلَ وأعذبَهُ
لولا الأيام تُنكِّده

بالبين وبالهجرانِ ، فيا
لفؤادي .. كيف تجلُّدهُ ! [3]

***

---

(١) يَشرقُ بالدمع : يغص ويختنق .
(٢) صروف الدهر : أحداثه ونوائبه .
(٣) تجلده : تحمله وتصبره .

صلوات في هيكل الحب

لأبي القاسم الشابي

لعلها أشهر قصائد الحب في الشعر العربي الحديث كله .

وهي شهرة لم تنلها بين شداة الأدب ومحبي الشعر، إلا بقدر ما كانت صيحةً جديدة في عالم التعبير الشعري عن تجربة الحب .. وكانت جِدّتها وأصالتها وإيقاعها الموسيقي المتناغم هي حيثيات ذيوعها وانتشارها وحفظ الكثيرين لها .

تلك هي قصيدة « صلوات في هيكل الحب » للشاعر التونسي الخالد أبي القاسم الشابي .. الذي عبر سماء الشعر العربي ، شهاباً مباغتاً ، لم يكد نوره يشعّ ويسطع ، حتى اختطفته يد المنون في ريعان الشباب ، وهو لم يجاوز من العمر خمسة وعشرين ربيعاً ، فانطفأ الشهاب الساطع ، وسكت الوتر الجديد المتفرد .

وُلد أبو القاسم عام ١٩٠٩ لأبٍ من علماء الدين هو الشيخ

محمد بن بلقاسم الشابي سليل أسرة « الشابية » التي وهبت حياتها للعلم ، بعد أن أنجبت – في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين – كوكبةً من حملة القلم والسيف ، امتلأ بهم التاريخ التونسي .. وكان الأب من خريجي الأزهر الشريف ، بـه درس أول الأمر مقيماً في مصر سبع سنين ، ثم درس بجامع الزيتونة في تونس سنتين أخريين حصل بعدهما على شهادة « التطويع » – وهي شهادة إتمام الدراسة بالكلية الزيتونية آنذاك – ثم عيّن قاضياً شرعياً بعد عام واحد من مولد ابنه الأكبر أبي القاسم ، فتصرف في قضـاء كثير من البلدان التونسية . وإلى هذا الأب ، يعود الفضل في التكوين الفكري والخلقي الذي أتيح لأبي القاسم . وفي ذلك المنـاخ الوادع الهادىء ، تفتحت مداركه واستيقظت أعماقه ، ووجـد في صداقته لأبيه نعم المعين على فهم ما حوله والتطلع إلى الخبىء الذي لم يتكشف بعد .

يقول أبو القاسم عن أبيه : « لقد أفهمني معـاني الرحمة والحنان،وعلمني أن الحق خير ما في هذا العالم وأقدس ما في هذا الوجود » .

ثم يتاح لأبي القاسم خلال سنوات عمره الباكر لونٌ من الرحيل والتطواف والتنقل لازم الأسرة عشرين عاماً، ضربت خلالها في البلاد التونسية طولاً وعرضاً ، متنقلة من « قابس » إلى « سليانة »و« فتاله » ، ومن « مجاز الباب » إلى « رأس

الجبل » « فزغوان » ، وواعية شاعرنا الملهم تلتقط وتختزن ، وترى وتتأمل، وتنفتح وتكتمل، وتمتلىء بسحر ألوان الطبيعة التونسية ، وتنوّع لهجاتها، واختلاف عاداتها ، وتعدد بيئاتها، ثم هو ينقل بصره بين غابات الصنوبر والثلوج الراقدة على قمم الجبال ، متأملا حياة الرعاة في الوديان، بين شياههم وأغنامهم وقطعانهم ، يعيشون حياة الفطرة والبساطة ، وحياة من استوطنوا المدن وابتلوا بشرور ما حملته المدنية إليهم من زيف ومجاراة لطبيعة العصر وفساد في الخلق والطباع .

ويمتلىء وجدان الشاعر الصغير السن ، ويتضخم رصيده من تجربة الحياة ، ويتدفق معين شاعريته ، وتزدهر ريشته ، فتبدع أجمل الألوان واللوحات ، وتشدو قيثارته بأعذب ما عرفه شعرنا الحديث من أنغام ، تتجه كلها صوب الحب والطبيعة والنفس الانسانية المعذبة ..

درس الشابي في جامع الزيتونة وهو في الثانية عشرة من عمره،واكتملت له صول الثقافة العربية وينابيع التراث العربي في أزهى عصوره ، بالإضافة إلى اطلاعه على روائع الأدب العربي الحديث في مصر والعراق وسوريا والمهجر ، وبدأ شعره يصافح الأسماع عام ١٩٢٣ وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وسرعان ما تأكد نبوغه المبكر ، ونضجه الشعري الخارق ، وتوالت قصائده ، في مجلة « النهضة » التونسية ، ثم في مجلة « أبولو » المصرية التي كان يصدرها الدكتور أحمد

زكي أبو شادي ، والتي كانت سفيراً للذوق الشعري الجديد في الوطن العربي ، وللقيم الفنية الجديدة ، داعية لها ومبشرة بها، ولأبولو يرجع الفضل في ذيوع شهرة الشابي ، على مستوى الوطن العربي كله ، وتأكيد منزلته الشعرية بين شعراء جيله ، طليعة ورائداً ، وشهاباً ساطعاً متفرداً ، ووتراً شادياً بأجمل وأعذب ما ألهمته إلهة الشعر ..

وينكب الشاعر بوفاة والده ومعلمه وصديقه عام ١٩٢٩ ، فتنوء حساسيته الشديدة بوقع الكارثة ، ثم يضطلع بأعباء الأسرة الكبيرة ويختار الطريق الوعر - رافضاً باب الوظيفة الحكومية - مؤثراً حياته البسيطة على رأس أسرته في « توزر » حيث تزوج ..

وفي السنة نفسها يصاب الشابي بداء تضخم القلب ، وهو ابن الثانية والعشرين ، وينهاه الطبيب عن الإرهاق النفسي والفكري، خاصة عن الانفعال الشعري المتقد ، لكنه لا يبالي بنصائح الطبيب ، ويواصل إنتاجه شعراً ونثراً ، ويصبح حديث الأوساط الأدبية في كل الوطن العربي مشرقه ومغربه، بل إن الدكتور أحمد زكي أبو الشادي - أمين جماعة أبولو - يكل إليه كتابة تصدير ديوانه « الينبوع » .

وفي صيف ١٩٣٤ يشرع الشاعر المريض المرهق في جمع ديوانه « أغاني الحياة » على أمل أن يطبعه في مصر ، لكن المنية تباغته بعد أن اشتد به المرض ، ويموت في مدينة تونس

فجر ٩ أكتوبر ١٩٣٤ ثم ينقل جثمانه إلى بلدته « توزر » حيث قبره .

يقول عنه معاصروه وأصدقاؤه : « كان نحيف الجسم ، مديد القامة ، قوي البديهة ، سريع الانفعال ، حاد الذهن ، تكفكف رقة طبعه من غرب عاطفته (حدة عاطفته) وحدة ذهنه، يراه أصدقاؤه بشوشاً كريماً وديعاً متأنقاً طروباً لمجالس الأدب يحب الفكاهة الأدبية، ويراه من لم يخالطه حييّاً محتشماً ، ويعرف منه هؤلاء وأولئك صراحة حازمة قوية يُبديها لخاصة خلطائه في غير ما تحرّج متى اجتمع بهم، ويجاهر بها العامة في شعره ونثره . وكان محباً لبلاده صادق الوطنية ، يفيض وجدانه بآمال بلاده وآلامها ، ويؤمن بأن لقادة الفكر رسالة إنسانية سليمة حاول جهده أن يحققها خلال حياته القصيرة – كالشهاب – قولاً وعملاً » ..

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن لأبي القاسم الشابي ، قرأها الناس لأول مرة في مجلة أبولو التي ظلت تصدر بين عامي ١٩٣٢ ، ١٩٣٤ في القاهرة ، وسرعان ما جذبت الاهتمام وشدت الأنظار إلى هذا الوتر الجديد ، وهذه اللغة الشعرية الجديدة، وهذا التناول الجديد لتجربة الحب في الشعر الحديث بصورة غير مسبوقة ؛ في إطار من الخيال العالي المجنح ، يمتحُ من أصول بيئته التونسية الجميلة ، ويوشي مواكب شعره بصورَ

أخاذة فاتنة . ودهش الشعراء والأدباء والقراء لهذه اللوحة الشعرية الفاتنة التي استطاع الشابي – في اقتدار وأصالة وتمكن – أن يرسمها لحبيبته ، وأن يجعل منها كائناً سماوياً يفيض رقة وطهراً وشفافية ، بل ملاكاً من ملائكة الفردوس يحيي في الأرض روح السلام والمحبة ، وربيعاً تخصب به الدنيا ، وتفيق على موكبه الحياة ، وتنتشي روحه الكئيبة الحزينة بالحب وتشدو كالبلبل الغريد ، وينطلق من جديد طموحه ونبضه وتوهجه ، ويحيا فيه ما كان قد جف ومات من عذاب الأماني وحلو التغريد ، فهي روح الربيع وهي أنشودة الأناشيد وهي سحر الشباب ، وهي موسيقية اللفتات والخطوات ، وهي هي الحياة في أجمل صورها وأنضرها وأحفلها بالبهجة والأمل والاشراق ، وهي فوق حدود الخيال والشعر والفن ، وهي قدس الشاعر ومعبده وصباحه وربيعه ونشوته وخلوده .. وهي معبوده الذي يخشع دوماً لروعته وجلاله وجماله ..

فهل رأى الناس – قبل الشابي – محبوبة على هذه الصورة الفاتنة ، الآسرة ، المكتملة لوناً ونغماً وعطراً ؟ وهل عرف شعرنا العربي قبل هذه القصيدة الفاتنة ، مثل هذا الافتنان في رسم ملهمة الشاعر وتجسيدها باعتبارها كل ما حوله من جمال : الطبيعة والكون والوجود والربيع والصباح والدفء والحياة والنجوم والطهارة والأناشيد والموسيقى والنشوة والخيال !

ونتأمل القصيدة ، فيأسرنا هـذا النفَس الشعري النامي المطرد ، وهذه الموسيقى المتلاحقة المنسابة ، وهـذه الصوَر الشعريَة الفاتنة المعبرة ، وهذا العشق الصادق العنيف ، لكنه عشق طاهر نقيّ يذكرنا بعشق العذريِّين أمثال: قيس وجميل وعروة وأضرابهم .. بل إنه ليذكرنا بعشق المتصوفة ، الذين تفانوا في حبهم ، وامتزج فيه العاشق والمعشوق ، والإنسان بالحقيقة الكلية المطلقة ، وبلغوا مرتبة الحلول عشقاً وصعوداً ووصولاً إلى حيث سلام الطمأنينة ، وقدسية الوصال .

ويختتم الشابي رائعته بصلاة شعرية حـــارّة ونداء هامس آسر، يتوجه به إلى حبيبته التي يشيد سحر عينيها جمال كونه والتي يفجر إلهام حسنها حقيقة عالمه، يسألها ألا تهدم ما شاده الحسن في فؤاده من عوالم غنية خصبة وخيالات عذبة مؤنسة، وألا تسحق آمال نفسه المتطلعة إلى حياة هانئة وادعة في ظل من تحب وتهوى .

والآن إلى قصيدة الشابي :

***

عذبة أنت :

عذبة أنتِ ، كالطفولة ، كالأحـ
ـلامِ ، كاللحنِ ، كالصباحِ الجديدِ
كالسماء الضحوك ، كالليلةِ القمـ
ـراءِ ، كالوردِ ، كابتسام الوليد [١]

يا لها من وداعةٍ وجمال
وشبـــاب منعَّم أملودِ [٢]

يا لها من طهارةٍ تبعث التقـ
ـديس في مهجة الشقيّ العنيد

يا لها رقةٌ تكاد يرفّ الـ
ـورد منها في الصخرة الجُلْمودِ [٣]

أيُّ شيء تُراك ؟ هل أنت « فينو
س » تهادت بين الورى من جديد [٤]

---

(١) القمراء : المقمرة ، المضيئة بنور القمر .
(٢) الأملود : الناعم .
(٣) الجلمود : الصَّلدة القاسية .
(٤) فينوس : الهة الجمال في الأساطير اليونانية .

لتعيــدَ الشبــاب والفرح المع
سولَ للعــالمِ التعيس العميدِ [1]

أم ملاك الفردوس جاء إلى الأر
ضِ ، ليُحيي روح السلام العهيد [2]

أنت ما أنت ؟

أنت ما أنتِ ؟ أنتِ رسمٌ جميلُ
عبقريٌ من فن هــذا الوجودِ

فيكِ مــا فيه من غموضٍ وعمقٍ
وجمــالٍ مقــدّسٍ معبــودِ

أنتِ..ما أنتِ ؟ أنت فجر من السح
رِ ، تجلّى لقلبي المعمــود [3]

فأراه الحيــاة في مونق الحس
نِ ، وجلّى له خفايا الخلود [4]

---

(١) العميد : المضنى .
(٢) العهيد : القديم ، العريق .
(٣) المعمود : الذي تيّمه العشق والهيام .
(٤) مونق : ناضر . جلّى : كشف وأظهر .

أنت روح الربيع ، تختال في الدنـ
يــا فتهتزُّ رائعــات الورودِ

وتهبُّ الحياة سكرى من العطـ
ـرِ ويدوي الوجود بالتغريد [1]

كلمــا أبصرتْكِ عينــاي تمشيـ
ـنَ بخطْوٍ مُوقَّعٍ كالنشيد

خفق القلب للحيــاة ، ورفّ الزّ
هرُ في حقل عمريَ المجرود [2]

وانتشت روحي الكئيبة بالحبّ
وغنّت كالبلبـل الغرّيــد [3]

أنت تُحيينَ في فؤادي مـا قد
مـــات في أمسي السعيد الفقيد

وتشيدين في خرائب روحي
ما تلاشى في عهديَ المجدودِ [4]

---

(١) يدوي : يسمع له صوت . الدويّ : الصوت والرنين والصدى .

(٢) المجرود : المقفر الذي لا نبات فيه .

(٣) الغريد : الشادي .

(٤) المجدود : المحظوظ ، المُنعَّم .

من طموحٍ إلى الجمالِ إلى الفنّ
إلى ذلك الفضاء البعيدِ

وتبثّين رقّة الشوق والأحـ
ـلام والشدوِ والهوى في نشيدي [1]

بعد أن عانقَتْ كآبة أيّا
مي فؤادي وألجمَتْ تغريدي [2]

أنت أنشودة الأناشيد غنّا
كِ إلهُ الغناء رب القصيد

فيك شبّ الشباب وشّحهُ السّحرُ
وشدْوُ الهوى وعطر الورد [3]

وتراءى الجمال يرقص رقصاً
قدسياً ، على أغاني الوجود

وتهادت في أفق روحك أوزا
نُ الأغاني ورقّة التغريد

فتمايلتِ في الوجود كلحْنٍ
عبقري الخيال حلو النشيد

---

(١) الشدو : الغناء .
(٢) ألجمت : أسكتت وأخرست .
(٣) وشّحه : زيّنه .

خطواتٌ سكرانة بالأناشيـ
ـدِ وصوت كرجع نايٍ بعيدِ [1]

وقـوام يكاد ينطق بالألـ
ـحانِ في كلّ وقفـةٍ وقعود

كلُّ شيء مُوقّع فيـكِ حتى
لفتـة الجيد واهتزاز النهود [2]

أنتِ .. أنتِ الحياة في قُدسها السا
مي وفي سحرهـا الشجيّ الفريدِ

أنتِ .. أنت الحياة في رقة الفجـ
ـرِ وفي رونق الربيع الوليد [3]

أنتِ .. أنت الحياة كلّ أوانٍ
في رواءٍ من الشباب جديدِ [4]

أنتِ .. أنت الحياة ، فيك وفي عينـ
ـيكِ آيات سحرهـا الممدود

---

(١) الرجع : الصدى .

(٢) موقّع : منغم . الجيد : العنق . النهود : جمع نهد ، الصدر .

(٣) الرونق : البهاء والنضرة .

(٤) الرواء : البهاء والحسن .

أنتِ .. دنيـا من الأناشيد والأحـ
لام والسحر والخيــال المديدِ

أنت فوق الخيــال والشعر والفنّ
وفوق النُّهى وفوق الحـدود [1]

أنت قدسي ومعبدي وصباحي
وربيعي ، ونشوتي ووجودي

يا ابنة النور :

يا ابنة النور إنني أنا وحدي
مَن رأى فيكِ روعة المعبودِ

فدعيني أعيشُ في ظلك العـذ
ب وفي قربِ حسنك المشهود

عيشةً للجمـال والفن والإلـ
ـهامِ والطهر والسّنا والسجود[2]

عيشةَ الناسكِ البتول يناجي الر
بَّ في نشوة الذهول الشديد[3]

---

(١) النهى : العقول .

(٢) السنا : الاشراق واللمعان والاضاءة .

(٣) البتول : المنقطع عن الدنيا الى الله ، والمنقطع عن الزواج .

وامنحيني السلامَ والفرح الرو

حيَّ يا ضوءَ فجريَ المنشودِ[1]

وارحميني فقد تهدَّمتُ في كوْ

نٍ من اليأس والظلامِ مَشيد

أنقذيني من الأسى ، فلقد أمـ

سيت لا أستطيـع حمل وجودي

في شعابِ الزمانِ والموتِ أمشي

تحت عبءِ الحياة جَمّ القيود[2]

وأماشي الورى ونفسي كالقبْـ

ـرِ ، وقلبي كالعالم المهدود[3]

ظلمةٌ ما لهـا ختام ، وهول

شائع في سكونها الممـدود

وإذا ما استخفـّني عبثُ النـا

س تبسمت في أسىً وجمود[4]

---

(١) المنشود : المرجو والمأمول .

(٢) شعاب : جمع شِعْب ، الطريق والمسلك .

(٣) أماشي : أصانع .

(٤) استخفني : حملني على المجون واللهو والطيش .

بسمةً مُرّةً ، كأنيَ أستلُّ
من الشوكِ ذابلات الورودِ[1]

وانفخي في مشاعري مرحَ الدنـ
ـيا وشدّي من عزميَ المجهود[2]

وابعثي في دمي الحرارة علّي
أتغنى مـع المنى من جديـد

وأبثّ الوجود أنغامَ قلبٍ
بلبليٍّ ، مكبلٍ بالحديـد[3]

فالصباحُ الجميل ينعشُ بالدفـ
ـءِ حيـاة المحطّم المكدود[4]

أنقذيني ، فقـد سئمت ظلامي !
أنقذيني ، فقـد مللت ركودي[5]

---

(١) أستل : انتزع .

(٢) المجهود : المجهد ، المتعب .

(٣) مكبّل : مقيد .

(٤) المكدود : الشديد الارهاق والهموم .

(٥) الركود : عدم الحركة وعدم التجديد والتغيير .

آه يا زهرتي :

آه يا زهرتي الجميـــلة لو تد
رين مـــا جدّ في فؤادي الوحيدِ
في فؤادي الغريبِ تخلقُ أكوا
نٌ من السحر ذات حسنٍ فريد
وشموسٌ وضّـــاءة ونجـــومٌ
تنــثر النور في فضــاءٍ مديد
وربيـــعٌ كأنــه حــلم الشا
عر في سَكـْرة الشباب السعيد[1]
ورياضٌ لا تعرف الحَلَك الدّا
جي ، ولا ثورة الخريف العتيد[2]
وطيـــور سحريّـة تتنـاغى
بأناشيـــد حــلوة التغريـــد

---

(١) سكرة : نشوة .

(٢) الحلك : الظلام .

وقصورٌ كأنها الشفق المخـ
ضوب أو طلعة الصباح الوليدِ[1]

وغيومٌ رقيقـــــةٌ تتهادى
كأباديد من نثار الورود[2]

وحيـــاةٌ شعريّـةٌ هي عندي
صورة من حيـــاة أهـل الخلود

كلُّ هـــذا يشيده سِحر عينيـ
ـكِ ، وإلهام حسنك المعبود[3]

وحرامٌ عليكِ أن تهدمي مـــا
شاده الحسن في الفؤاد العميد[4]

وحرامٌ عليك أن تسحقي آ
مال نفسٍ تصبو لعيشٍ رغيد[5]

---

(١) المخضوب : المصبوغ بما يشبه لون الدم .

(٢) أباديد : مزق متناثرة .

(٣) يشيده : يصنعه ويحققه .

(٤) العميد : المتيم ، العاشق .

(٥) تصبو : تتطلع وتهفو .

مِنكِ ترجو سعادةً لم تجدهـــا
في حياة الورى وسِحر الوجودِ[1]

فالإله العظـــيم لا يرجم العبْـ
ـدَ ، إذا كان في جلال السجود

* * *

(١) الورى : الخلق .

القمـــر العـــاشـق

للشاعر علي محمود طه

تسائلني : وهـــل أحببتَ مثـــلي
وكم معشوقة لك أو خليلة ؟

فقلت لهـا ـ وقد همَّت بكاسي
إلى شفتيَّ راحتُهــا النحيلة ـ

نسيتُ ، وما أرى أحببت يومـاً
كحبّك ، لا ، ولم أعرف مثيــلة

فقالت لي ، جوابك لم يدع لي
إلى إظهـار مـا تُخفيـه حيلة

وفي عينيـك أسرارٌ حيـارى
تكذب مـا تحـاول أن تقوله !

فقلت : أجل ، عرفتُ هوى الغواني
لكلّ غـايةٌ ولهـا وسيـله

إذا طالعتني أنسيتُ جـــرحي
وأن الحب لم يرحم قتيـــله

وجـاذبني إلى اللذاتِ قلبٌ
شقيٌ ضلّ في الدنيـــا سبيـله

وعدت كما ترين صريع كأسٍ
أنا الظمآن لم يطفىء غليـله

فقالت : كيف تضعف ؟ قلت: ويحي
وكيف أطـاع شمشون دليله ؟

فقالت : مـا حياتك ؟ قلت : حلم
من الأشواق أوثرُ أن أطيـله

حيـــاتي قصة بدأت بكأسٍ
لهـا غنّيْتُ ، وامرأةٍ جميـلة !

أجل ، هذا هو مفتاح المفاتيح الى عالم الشاعر الملاح علي محمود طه ، إلى أعماق وجدانه ، ومسارب قلبـه ، وحقيقة حبه ومعاناته ..

والمرأة في حياة علي محمود طه شيء أساسي ، لا غنى عنه ، وبدونه لا يكون للحياة معنى ، ولا للفن حياة ، ولا للشعر توهج أو حرارة ..

لقد عرف شاعرنا المترف ، الكثير الأسفار ، الباحث أبداً عن الجمال ينشده ويتصيده ، عرف الكثيرات من كل لون وجنس ، وذاق شتى الطعوم والصنوف، وارتطمت تجاربه بعشرات النماذج الإنسانية ، بين شهوة الجسد ومودة الروح ومتعة الصداقة وبراءة التعاطف والرعاية .

والدارسون لشعر علي محمود طه ، والمتأملون فيه ، يرون أنه كان دائم البحث في جسد المرأة ، لأن فيه اللذة وقد اقترنت بعبادة الجمال ، كأنما المرأة - كانت بالنسبة إليه - المعبر الرئيسي لكل شعور يبحث عن القيم الجمالية فيما وراء الواقع الجامد وصوره الحسية ..

يقول عنه الناقد الراحل أنور المعداوي :

« هكذا كان علي محمود طه في حياته ، وهكذا كان في شعره . لا تفرقة بين تذوق اللذة وبين تذوق الجمال،ولا فصل بينهما في عالم الشعور أو عالم منظور ، لقد عشق المرأة في صورة الجسد اللذيذ وعشق في الجسد اللذيذ صورة المعنى الجميل، ومن هنا امتزج الاحساسان في نفسه حتى لقد أصبحا وحدة متماسكة ليس إلى تجزئتها من سبيل ، إن فيه « الرجل » الذي أقبل على المادة ، وإلى جانبه « الشاعر » الذي أقبل على الروح ، وهما لونان من الحب بينهما من القرب ما يلغي الفواصل ولا يعترف بالأبعاد .. هناك رجل لا يستهويه من الزهرة غير اللذة المجردة التي ينقلها إليه طيب الرائحة ، وهذا هو المزاج

العادي الذي يقصر التذوق على اللذة المادية، وهناك رجل آخر لا يقصر التذوق على مثل تلك اللذة ما دام إلى جانبها جمال تعشقه الروح ، لأن الزهرة عنده لونٌ وعطر ، لون يبهر ، وعطر يفوح . وهذا هو المزاج غير العادي لأنه مزاج الفنان ، مثل ذلك الرجل الأول صاحب مزاج لا يمكنك أن تصفه بأنه مزاج رفيع ، لأنه يستقبل المشهد المادي ممثلاً في الزهرة بحاسة واحدة ، وكأن الحواس الأخرى قد فقدت وظائفها الرئيسية . هذه الحاسة الواحدة التي نعنيها هي حاسة الشم التي تبحث عن العطر ولا تبحث عن شيء سواه ، وسواء لديها وجدته في الزهرة أم وجدته في زجاجة العطر ما دامت كل منهما تنفح الشعور بنشوة الرائحة . لو اشتركت عنده حاسة النظر مع حاسة الشم لغدت الزهرة في إحساس العين والأنف، وهي كما قلنا لون وعطر ، ولتحول هذا الإحساس الخارجي بعد ذلك إلى إحساس داخلي هو في لغة النفس لذة وجمال ، وهنا نجد المزاج الفني المرهف عند الرجل الأخير » .

* * *

في مقدمة قصيدة له بعنوان : « هي وهو » يقول علي محمود طه :

« جمعتها المصادفة فأحسا بذلك الانعطاف الروحي البريء الذي يقرّب ما بين القلوب ويمازج بين الأرواح..وأحسا بالهوة

العميقة العريضة التي تفصل بينهما ، فتحدث إليهـا عن ذلك الحب اليائس وألمه الممضّ ، وأن القدر لا يريد لهما السعادة».

تُرى ، ما هي حقيقة تلك الفتاة التي أحبها علي محمود طه وأحبته وبعثت إلى لياليه بالسهد وإلى شعره بالحنين وإلى عينيه بالدموع ؟ وما هي حقيقة تلك الهوة العريضة التي يشير إليها ولا يفصح ، ويتحدث عنها ولا يبين ، تلك الهوة الرهيبة التي فغرت فاها لتلتهم أمله الكبير في امتداد الحياة ؟

يبدو من شعره في الحب – الذي يضم عصـارة قلبـه وخلاصة نفسه ووجدانه – أنه على كثرة الغاديات والرائحات من حوله كان يبحث عن امرأة معينة ، امرأة تمـلأ في قلبه مكاناً خاصاً ظلّ منذ الطفولة وهو شاغر ينتظر ضيفه الحبيب، لقد لقي المرأة وهي في ثوب الخليلة، ولقي المرأة وهي في ثوب الصديقة ، ولكنه لم يلق المرأة وهي في ثوب الأم، هذه المرأة التي يمكن أن تشغل البقعة الخالية في وجوده الداخلي بحنـان الأمومة، لكم بحث عن هذا النموذج الأنثوي الذي يسد فراغاً تركته الأم وهو صغير، حتى لقد ظل يتطلع إليه بلهفة الطفل التي لم ينتزعها من بين جنبي الرجل تعاقب الأيام..فقدَ الشاعر أمه الحانية ، فقضى العمر يبحث عن ظلها في صورة زوجة ، زوجة تشاطره الحياة ، وتنسي الطفل الكبير أنه يتيم !

* * *

والقصيدة التي نطالعها الآن للشاعر الملاّح ، ليست قصيدة حب مباشرة ، بقدر ما هي لوحة فنية فاتنة ، وصورة شعرية نادرة ، رسمها الشاعر ، وافتنّ في إبداعها وإكسابها إيقاعها الموسيقي الموائم، وجرسها المنشود ، وألوانها وظلالها الرائعة، مخاطباً بها ذات الغلالة الرقيقة النائمة تحت نافذتها المفتوحة في ليالي الصيف المقمرة .

أولُ ما يشدهنا في هذه القصيدة الجميلة موسيقاها الداخلية الأخاذة ، ليست موسيقى الرنين أو موسيقى الألفاظ التي تخاطب الأذن ، ولكنها موسيقى الهمس الشعري تهزُّ مسارب العاطفة وروافد الشعور ، اندفاعاً وتوقفاً ، انسياباً وتهدجاً ، وإسراعاً وإبطاءاً ، ارتفاعاً أو انخفاضاً .. وفرق بين موسيقى تنقل للشعور المتلقي لحظة الغضب ، وموسيقى تُمثّلُ لحظة الدهشة واللهفة أو لحظة الأسى والحنين .

ثم هذا القمر العاشق، يصوره الشاعر ويبدع في تصويره ، فإذا هو بالفعل عاشق يمتلىء حياة وصبوة واشتهاء ، يتسلل من نافذة المحبوبة يتأمل جسدها الفاتن ويتحسسه ، ويتوقف عند مواطن الفتنة فيه ، والشاعر تمتلكه الغيرة الجامحة من هذا المتسلل الذي لا يملك له دفعاً ولا ردّاً ، ومن هذا المتيّم الذي سباه جمال الفاتنة وكأنما أعطى جمالها من قوة التأثير ما استطاعت أن تغري بـه حتى الجماد ، فإذا بالقمر – وهو

مَن هو رفعةً وسناء وعلو منزلة ومكان ـ أسير جمالهـا ، وعبد فتنتها ، وتابـع سلطانها ، تأمره وتتحكم فيه ، وتستبيه وتصبيه !

ونتابـع مقاطع القصيدة لنصل إلى حيث يصور الشـاعر هيام القمر العاشق وقـد حاول أن يقبّل ثغر المحبوبة وأن يلفّ نهدها وأن يضم الجسد .. فباءت محاولاته بالخيبـة والفشل، ولم يصب منها شيئاً ، وكأن الشاعر يحاول أن يرضي شعوره الدفين بالغيرة ، وأن يريح هواجس نفسه المشتعلة بالألم وهو يرى القمر متسللاً إلى حيث لا يستطيع هو أن يصل أو يشاهد أوْ يلمس .

والآن، مع القصيدة التي اخترناها من بين صفحات ديوانه: « ليالي الملّاح التائه » وهو ثاني دواوينه ، سبقه صدور ديوانه الأول «الملّاح التائه» ، ثم تتابعت دواوينه: «أرواح وأشباح» و «أغنية الرياح الأربـع» و «الشوق العائد» و «شرق وغرب» و « زهر وخمر » ، حتى كانت وفاته عام ١٩٤٩ .

« القمر العاشق »

إذا ما طاف بالشرفة ضوء القمر المُضْنى
ورفّ عليك مثـل الحلم أو إشراقة المعنى

وأنت على فراش الطهر كالزنبقة الوسنى
فضمّي جسمك العاري وصوني ذلك الحسنا

***

أغار عليك من ساب ٍ كأنّ لضوئه لحنا [1]
تدقّ له قلوب الحور أشواقاً إذا غنّى
رقيق اللمس عربيد بكل مليحة ٍ يُعْنى
جريءٌ إن دعاه الشوق أن يقتحم الحصنا

***

تحدّر من وراء الغيم حين رآك واستأنى [2]
ومسّ الأرض في رفق ٍ يشقّ رياضها الغنّا
عجبتُ له وما أعجب كيف استلم الركنا !
وكيف تسوّر الشوك ، وكيف تسلّق الغصنا !

***

(١) ساب : آسر بالحبّ . الحور : جمع حوراء . يقال : عين حوراء: أي اشتد بياض بياضها وسواد سوادها .. وهذا من صفات الحسان .

(٢) تحدّر : نزل من علوه وارتفاعه . استأنى : تأنى وتمهل وترفق.

على خدّيك خمرُ صبابة أفرغهـــا دنّا [1]
رحيقٌ من جنى الفتنة لا ينضب أو يفنى [2]
وفي نهديـكِ طلّسمانِ في حلّهـما افتنّا [3]
إلى كنزهـــا المعبـود بات يُعـالجُ الرُّدْنا [4]

* * *

أغار ، أغارُ إن قبّل هذا الثغر أو ثنّى
ولفّ النهـد في لينٍ وضم الجسد اللّدنا [5]

فـإن لضوئـه قلبـا وإن لسحره جفنـا

يصيد الموجـة العذراء من أغوارهـا وَهْنا [6]
وكم من ليلة لمّـا دعـاه الشوق واستدنى

---

(١) الدن : الكأس .

(٢) الجنى : الثمار .

(٣) طلسمان : لغزان .

(٤) الردن : أصـل الكم ، وطرف الكم الواسع (أي أن القمر العاشق كان يحاول التسلل من داخل أكمام الحسناء) .

(٥) اللدن : اللين ، الناعم .

(٦) أغوارها : أعماقها البعيدة . وهنا : ضعيفا ، كسولاً ، متراخياً ، أو هي بمعنى : الوقت بعد منتصف الليل .

جثا الجبارُ بين يديك طفلاً يشتكي الغَبْنا [1]
أراد فلم ينل ثغْراً ، ورام فلم يصب حِضْنا
حوَتك ذراعه رسماً ، وأنت حوَيته فنّا

* * *

عصيت هواه فاستضرى كأنْ بصدره جنّا [2]
مضى بالنظرة الرعناء يطوي السهل والحَزْنا [3]
يثيرُ الليلَ أحقاداً وصدْرَ سحابِه ضغنا [4]
وعاد الطفلُ جبّاراً يهزُّ صراعُه الكونا

* * *

(١) الغبن : الظلم .

(٢) استضرى : اشتعل وتمرد واهتاج .

(٣) الرعناء : الحمقاء أو الهوجاء . الحَزْن : المكان المرتفع الوعر من الأرض .

(٤) الضغن : الكراهية .

فردّي الشرفــة الحمراء دون المخدع الأسنى [1]
وصوني الحسن من ثورة هــذا العاشق المضنى
مخافة أن يظنّ الناس في مخدعك الظـّنـّا
فـكم أقلقتِ من ليْلٍ وكم من قمرٍ جُنـّا !

* * *

(١) ردي الشرفة : أغلقيها . دون المخدع : أي لتحجب هذا المخدع وتخفيه عن الأنظار (حتى لا يراه القمر العاشق) .

[الأطـــلال]

للدكتور ابـراهــيم نـاجــي

« هذه قصة حب عاثر ، التقيـا وتحابًا ، ثم انتهت القصة بأنهـا هي صارت أطلال جسد ، وصار هو أطلال روح ، وهذه الملحمه تسجل وقائعها كما حدثت » .

بهذه الـكلمات ، يقدم الشاعر ابراهيم ناجي لملحمته الشعرية « الأطلال » ، التي يضمها ديوانه «ليالي القاهرة» ، ثاني دواوين الشاعر ، التي نُشرت في حياته ، أولهما « وراء الغمام » صدر سنة ١٩٣٤ ، والثاني « ليالي القاهرة » صدر سنة ١٩٥١ ، أما الديوان الثالث « الطائر الجريح » فقد نُشر بعد أربـع سنوات من وفــاة الشاعر ، التي كانت في ٢٤ مــارس عام ١٩٥٣ .

ولقد ظلت الأطلال عملاً شعرياً لا يعرفه إلا الخاصة من الدارسين وشُداة الأدب ومتتبعي الشعر ، حتى أتيح لبعض

مقاطعها أن تصل إلى أسماع الملايين على متن صوت أم كلثوم ، عند ذلك ذاعت شهرتها، وتناقلتها الألسنة والأسماع،وأصبحت أشهر ما تعيه ذاكرة العامة من شعر ناجي .

أما صاحب الأطلال ، فعَلَمٌ شعري بارز في حركة الشعر المصري الحديث ، ورائد من رواد جماعة أبولو التي ازدهر نشاطها بعد إنشائها عام ١٩٣٢، والتي كان يرأسها أمير الشعراء أحمد شوقي ، ويتولى أمانتها الدكتور أحمد زكي أبو شادي ، تلك الجماعة التي أسهمت بدور بارز في تطوير الشعر الحديث ، وربطه بالوجدان الانساني ، وأصبح لها طابعها المتميز ، متمثلا في شعر طائفة من شباب الشعراء ، كان ناجي ألمعهم شاعرية وأكثرهم أصالة وتمايزاً ، عرفوا بأصحاب الاتجاه الرومانتيكي الغنائي ، وكان من بينهم أبو شادي وعلي محمود طه والهمشري وحسن كامل الصيرفي وزكي مبارك وأحمد رامي وصالح جودت وآخرون .

والمتأمل في شعر ناجي ، يطالعه — أول ما يطالعه — هذا الطابع الحزين القاتم ، يضفي على قصائده مسحة من الأسى والشحوب ، ويحمل هذا الطابع كلَّ سمات الحزن والانطواء والوجد والهيام والهروب والانطلاق والتمرد والتعلق بالطبيعة والتشبث بالحب .

ولقد ساعدت حساسيته المفرطة ، ومزاجه الرومانتيكي ، وبنيته الجسمية الضئيلة – فقد كان قصير القامة ضئيل الجسم ساذج الملامح – ساعد ذلك كله في تأكيد هذا الحزن الكامن في وجدانه ، المترسب في القرار البعيد من أعماقه ، مخلفـــاً لديه شعوراً طفولياً ورغبة طفولية في أن يعابث ويداعب كل من يصادف من النساء ؛ ويفتح وجدانه بالفعـــل لكل زهرة أنثوية يلتقي بهـــا ، وكأنه كان ينشد أبداً حباً لا يجده ولا يصل إليه،وتأكيداً لذاته كان يفتقده في نفسه ولدى الآخرين، وأنّى له – وهو على هذه الصورة – أن يكون فتى الأحلام المرجو أو فارس النساء المعدود !

وفي قصيدته الطويلة ، أو ملحمته « الأطلال » كما يسميها، تطالعنا أيضاً خصائص فن ناجي وشاعريته : روح شعري شفاف ، وصياغة بيانية مشرقة ، وتعبير آسر بالصورةالشعرية المتنامية والمتآزرة وخيال مجنّح ، يصل بالتجربة الشعرية إلى آفـــاق وتخوم لم تُقتحم من قبل ، وقدرة خارقة على التصوير والتجسيد والتجسيم ، وموسيقى شعرية تعتصر وجدان المتلقي وهو يطالع مقاطع القصيدة ، ويتنقل بين روافدها المتجمعة ، ويستمع إلى صوت الشاعر الأسيان المفجوع في مواجهة إرادة القدر وصوت القضاء ، ثم وهو يخاطب الريح التي كانت تغري قلبه إغراء النصيح الفاجر بالنسيان والتأسي ، والريح هنـــا – في هذه القصيدة – رمز للشياطين الحاقدة ، تنتهز الفرصة

لتسعى بنشر السموم ، ولكن هيهات ، فالشاعر مؤمن بقضائه وقدره ، هذا القدر الذي تمثّل له في وجه محبوبته ، شيء خُلق له من قبل أن يخلق هو ..

أيهـــا الريح أجلْ ، لكنما
هي حبّي وتعـــلّاتي ويأسي
هي في الغيب لقلبي ُخلقت
أشرقت لي،قبل أن تشرق شمسي

وهو معترف بأن غرامه الحـــار المتوهج َقدرٌ في طعم الموت ، قدر مشئوم ، حوّل عمره إلى مأتم ، ولم يترك له من عمر البهجة وأعراسها ساعة واحدة :

يا غراماً كان منّي في دمي
قدراً كالموت ، أو في طعمِه
ما قضينـــا ساعةً في عُرسه
وقضينـــا العمر في مأتمِـــه

ولكنه ، بالرغم من ذلك كله ، متعاطف أشد التعاطف مـــع صرعى القضاء ، وضحايا المقادير ، يذوب قلبه حنوّاً وألماً ومشاركة :

أيهـــا الشاعرُ : كمْ من زهرة
ُعوقبت ، لم تدرِ يوماً ذنبَها !

فإذا عدنا الى الأطلال وجدناها صورة صادقة الملامح لقصة الحب المأساوية ، الدامية الختام .. تتماوج مقاطعها بكل ما في قصص الحب ، من تذكـّر ولوعة وحسرة ، ومواقف انطلاق وصبوة وغفلة عن فعل الزمان وتبدل الأيام ، وافتتان بالحب ذلك الذي يرقى بالإنسان الى عالمٍ أسمى وأسنى ، فيدمن الرقي والطموح نحو سماء غير منظورة ، ويلتقي الحبيبـان في قمتها المنفردة ، ويبوحان بسرّيهما ، ويريان الناس من تحتهما ظلالاً في السفوح ، وفجأة يتغير الحال ، وتعبث المقادير ، ويضرب القضاء ضربته ، وسرعان ما يهوي التمثال الذي صنعه العاشق لنفسه ، من أحلامه وأوهامه ومطامحه وأشواقه وتصوراته ، من أسى حرمانه وعنفوان تطلـّعه ؛ ويصبح الحبيبـان – في غمضة عين – منفيّين في فيافي الحياة ، وصحرائها ، يواجهان الأشواك والصخور ، والجدب والظلام والحظوظ السود والليل الضرير ، وتملأ الهواجس نفس العاشق ، وتتحاور معـه الكائنات . ماذا عليه لو نسي أو تناسى ؟ ماذا عليه لو ودع هذا الغرام اليائس وهذا الحب القاتم المدمّر ؟ وتهمس الريح في أذنيه بنصحها الشرير : إنّ من حوله القلوب والنساء بعدد الرمل ، فليتخير من يشاء ، وليبدأ من جديد صفحـة حبه الجديد ، وليؤمن من الآن أن الناس جميعاً من طين ومـاء ، فأبناء السماء لا يعيشون على الأرض !

لكنّ الشاعر العاشق لا يستمع إلى هذا كله ، ولا يفتح له

نوافذ قلبه، إنه مؤمن بقدره ، محتضن لقضائه ، مستسلم للنهاية الأليمة الفاجعة :

فإذا أنكر خلٌّ خلَّهُ
وتلاقينا لقاءَ الغرباءْ
ومضى كلٌّ إلى غايته
لا تقل شئنا ، فإنَّ الحظَّ شاءْ

* * *

هذه هي الأطلال ، ملحمة ناجي ، ولوحة حبه الأخاذة الرائعة ، الناطقة بقدرته الخارقة على التصوير والتجسيد ، والتعبير عن المعنويات في صورة المحسوسات ، ورسم الجو العاطفي والنفسيّ المحيط بالمشهد في كافة أبعاده وعناصره ، وقدرته على توفير الايقاع الموسيقي المواكب لحركة النفس والشعور بسطاً وانقباضاً، إشراقاً وقتامة ، انطلاقاً وعبوساً ، ثم على تنويع هذه الايقاعات كما فعل في المقاطع التي ضمنها حديث الريح وهمسها الى الشاعر عندما تخيلها تنصحه وتعاتبه على التمادي في الحب المعذب ، فقد صاغ الشاعر مقاطعه هذه من بحر الرمل – الذي نظم منه قصيدته كلها – ولكن من مجزوء البحر وليس من البحر بكامل تفاعيله ، فجاء هذا التنوع الموسيقي انعكاساً للتنوع التعبيري والشعوري في مواقف التجربة الشعرية ، ومفرّقاً بين طبيعة الفقرات التي يتحدث

فيها الشاعر بنفسه ، والفقرات التي يترك فيها عنان الحديث لغيره .

يبقى بعد ذلك أن نشير الى طبيعة هذا البحر الشعري الذي صاغ منه ناجي ملحمته الشعرية : « بحر الرمل » ، فالمعروف أنه من البحور الهادئة الموسيقى، المهموسة الإيقاع ، الملائمة كلّ الملاءمة لمثل هذه التجربة الشعرية العميقة التي عبّر عنها ناجي أجمل تعبير ، وصوّرها أروع تصوير .

* * *

الأطلال

« هذه قصة حب عاثر ، التقيا وتحابا ، ثم انتهت القصة بأنها هي صارت أطلال جسد ، وصار هو أطلال روح ، وهذه الملحمة تسجل وقائعها كما حدثت » .

* * *

يا فؤادي ، رحم الله الهوى
كان َصرحاً من خيالٍ فهوى[1]
أسقني واشرب على أطلالِه
وارْوِ عنّي، طالما الدمعُ روى

---

(١) الصرح : القصر أو البنيان العظيم الشاهق .

كيف ذاك الحبُّ أمسى خبراً
وحديثاً من أحاديث الجوى
وبِساطاً من ندامى حلُمٍ
هم تواروا أبداً ، وهو انطوى

* * *

يا رياحاً ، ليس يهدا عصفُها
نضَبَ الزيتُ ومصباحي انطفا [1]
وأنا أقتاتُ من وهمٍ عفَا
وأفي العُمرَ لناسٍ ما وفى [2]
كم تقلبتُ على خنجرِهِ
لا الهوى مال ، ولا الجفنُ غفَا
وإذا القلبُ – على غُفرانه –
كلما غارَ به النصلُ عفا [3]

* * *

(١) نضب : نفد وانتهى .

(٢) عفا : رحل وانقشع .

(٣) النصل : طرف الرمح أو السهم .

يا غراماً كان منّي في دمي

قدراً كالموت ، أو في طعمه

ما قضينا ساعةً في عُرسِه

وقضينا العمرَ في مأتمه

ما انتزاعي دمعةً من عينه

واغتصابي بسمةً من فمِه

ليت شعري أين منه مهربي

أين يمضي هاربٌ من دمه ؟

* * *

لستُ أنساكِ وقد ناديتِني

بفمٍ عذْبِ المناداة رقيقْ

ويدٍ تمتدُّ نحوي ، كيَدٍ

من خلال الموجِ مُدَّت لغريقْ

آه يا قِبلةَ أقدامي ، إذا

شكَت الأقدامُ أشواكَ الطريق

وبريقاً يظمأ الساري له

أين في عينيكِ ذيّاك البريق؟[1]

* * *

(١) الساري : المسافر ليلاً .

لستِ أنساكِ ، وقد أغريْتِني
بالذرى الشمّ ، فأدمنتُ الطموح[1]

أنتِ روحٌ في سمائي ، وأنا
لكِ أعلو ، فكأني محضُ روح

يا لهــا من قممٍ كنّا بهـا
نتلاقى ، وبسرّينـا نبوح

نستشفُّ الغيبَ من أبراجها
ونرى الناسَ ظلالاً في السفوح

***

أنت حُسْنٌ في ضحاه لم يَزلْ
وأنا عنديَ أحزانُ الطَّفَل[2]

وبقايا الظلّ من ركبٍ رحَل
وخيوط النور من نجمٍ أفل

ألمح الدنيــا بعيني سَئِمٍ
وأرى حوليَ أشباحَ الملل

---

(١) الذرى الشمّ : القمم المرتفعة ، يقصد بهـا الآمال والأهداف الرفيعة .

(٢) الطَّفَل : وقت الغروب .

راقصاتٍ فوق أشلاء الهوى
مُعولاتٍ فوق أجداث الأمل[1]

* * *

ذهب العمرُ هباءً ، فاذهبي
لم يكن وعدُكِ إلا شبحا
صفحة قد ذهب الدهر بها
أثبت الحبّ عليها ومحا
انظري ضحكي ورقصي فرحا
وأنا أحمل قلباً ذُبحا
ويراني الناس روحاً طائراً
والجوى يطحنني طحن الرَّحى[2]

* * *

كنت تمثال خيالي ، فهوى
المقادير أرادت لا يدي
ويحَها ، لم تدرِ ماذا حطّمت
حطمت تاجي ، وهدّت معبدي

---

(١) أجداث : قبور ، جمع جدث . مُعْوِلات : باكيات بشدة .
(٢) الرحى : الطاحون .

يا حيــاة اليائسِ المنفردِ
يا يباباً مـا به من أحدِ[1]

يا قفـاراً لافحاتٍ ما بهـا
من نجيٍّ ، يا سكون الأبد[2]

* * *

أين من عيني حبيبٌ ساحـرٌ
فيـه نبلٌ وجلالٌ وحيـاء

واثق الخُطوةِ يمشي مَلَكاً
ظـالم الحُسنِ ، شهيُّ الكبرياء

عبقُ السّحرِ كأنفاس الرّبى
ساهمُ الطّـرف كأحـلام المساء

مشرقُ الطلعـة ، في منطقه
لغـة النور ، وتعبير السماء

* * *

أين مني مجلسٌ أنتِ بـه
فتنـةٌ تمّتْ سنـاء وسنى

---

(١) اليباب : القفر ، الخراب .
(٢) نجي : أنيس ، رفيق يفضي إليه بالنجوى .

وأنـا حبٌ وقلبٌ ودمٌ

وفراشٌ حـائرٌ منكِ دنا

ومن الشوق رسول بيننـا

ونديمٌ قدّم الكأس لنـا

وسقانا ، فانتفضنـا لحظـةً

لغبـارِ آدميٍّ مسّنـا ! [1]

* * *

قد عرفنا صولة الجسم التي

تحكم الحيّ ، وتطغى في دماه [2]

وسمعنـا صرخةً في رعدهـا

سوطُ جلّاد ، وتعذيبُ إلـه

أمرتْنـا ، فعصينـا أمرهـا

وأبيْنا الذلّ أن يغشى الجباه

حكم الطاغي ، فكنّا في العُصاة

وطُردْنا خلف أسوارِ الحياة

* * *

(١) الغبار الآدمي : يقصد به نشوة الجسد وشهوته .

(٢) صولة : سطوة وقهر وغلبة .

يا لمنفيَّيْنِ ضلاّ في الوعورِ
دميا بالشوك فيها والصخور

كلما تقسو الليالي ، عرفـَا
روعةَ الآلام في المنفى الطّهور

طُردا من ذلك الحلم الكبير
للحظوظ السود، والليل الضرير[1]

يقبسان النور من روحيهما
كلما قد ضنّت الدنيا بنور[2]

* * *

أنتِ قد صيّرتِ أمري عجبا
كثرت حولي أطيار الرُّبى

فإذا قلتُ لقلبي ساعةً
قمْ نغرّد لسوى ليلى أبى

حجبٌ تأبى لعيني مأربا
غيْرَ عينيك ، ولا مطلبا

---

(١) الضرير : الأعمى ، والمراد به الشديد الظلمة
(٢) يقبسان : يستمدان ويستلهمان .

أنتِ من أسدلها ، لا تدّعي

أنني أسدلتُ هذي الحجبا [1]

* * *

ولكمْ صاح بي اليأسُ انتزعها

فيردُّ القدرُ الساخر : دَعْهـا

يا لها من خطـّةٍ عميـاء ، لو

أنني أبصر شيئاً لم أطعهـا

وليَ الويـلُ إذا لبّيْتُهـا

وليَ الويـل إذا لم أتّبعْهـا

قد حنَتْ رأسي، ولو كلُّ القوى

تشتري عزّة نفسي ، لم أبعهـا

* * *

يا حبيباً زُرتُ يومـاً أيكـَهُ

طائرَ الشوق ، أغنّي ألمي [2]

---

(١) الحجب : الستائر والموانع .

(٢) الأيكة : الشجرة الكثيفة الملتفـة ، وهي رمز للمكان الذي يظلل العشاق .

لكَ إبطــاءُ الدلالِ المنعم

وتجنّـي القــادرِ المحتكم [1]

وحنيني لكِ يكوي أعظمي

والثواني جمرات في دمــي

وأنا مرتقب في مــوضعي

مرهَفُ السمعِ لوقعِ القدم

***

قدمٌ تخطو ، وقلبي مشبه

موجــةً تخطو إلى شاطئها

أيها الظالم : بالله إلى كم

أسفح الدمع على موطئها

رحمةٌ أنت ، فهل من رحمةٍ

لغريبِ الروحِ أو ظامئهــا

يا شفاء الروحِ ، روحي تشتكي

ظلمَ آسيها ، إلى بارئها [2]

***

(١) تجني : ظلم وقسوة .

(٢) الآسي : الطبيب، والمداوي . البارىء : الخالق ، أو الذي يُشفي من مرضه .

أعطني حريقي أطلق يديّ
إنني أعطيتُ ما استبقيتُ شيّ

آه من قيدك أدمى معصميّ
لم أبقيه ، وما أبقى عليّ ؟

ما احتفاظي بعهودٍ لم تصنها
وإلامَ الأسرُ ، والدنيا لديّ ![1]

هاأنا جفّت دموعي، فاعفُ عنها
إنها قبلك لم تُبذل لحيّ

* * *

وهب الطائرَ من عُشّك طارا
جفّت الغدرانُ ، والثلجُ أغارا

هذه الدنيا قلوب جمدت
خبت الشعلةُ ، والجمرُ توارى

وإذا ما قبس القلب غدا
من رمادٍ، لا تسله كيف صارا[2]

---

(١) الأسر : الحبس والسجن .

(٢) القبس : شعلة النار .

لا تسل ، واذكر عذابَ المصطلي

وهو يذكيه ، فلا يقبس نارا[1]

* * *

لا رعى الله مساءً قاسيـا

قد أراني كلَّ أحلامي سدى

وأراني قلبَ من أعبـدُه

ساخراً من مدمعي سَخَرَ العدا[2]

ليت شعري، أي أحداثٍ جرت

أنزلت روحك سجناً مُوصَدا ![3]

صدئت روحك في غيهبهـا

وكذا الأرواحُ يعلوها الصدا[4]

* * *

قد رأيتُ الكون قبراً ضيقاً

خيَّم اليأسُ عليه والسكوتْ

ورأت عيني أكاذيب الهوى

واهيـاتٍ كخيوط العنكبوت

---

(١) المصطلي : من يوقد النار بقصد الاستدفاء .
(٢) سخر : سخرية .
(٣) موصداً : مغلقاً .
(٤) الغيهب : الظلام .

كنت ترثي لي ، وتدري ألمي
لو رثى للدمع تمثال صموت
عند أقدامك دنيــا تنتهي
وعلى بابك آمـــالٌ تموت

* * *

كنت تدعونيَ طفــلاً ، كلما
ثار حبي ، وتندّت مقلي[1]
ولك الحقُّ ، لقد عاش الهوى
فيَّ طفلاً ، ونمـــا لم يعقل
وأرى الطعنةَ إذ صوّبتَها
فمشت مجنونـــةً للمقتل
رمت الطفلَ ، فأدمت قلبه
وأصابت كبريـــاءَ الرجل

* * *

قلتُ للنفس وقد جزْنا الوصيدا
عجّلي لا ينفع الحزمُ وئيدا[2]

---

(١) تندّت : ابتلّت بالدموع .
(٢) الوصيد : الممر الضيق المطبق .

ودعي الهيكلَ شبَّت نارُه
تأكل الركَّعَ فيه والسُّجودا

يتمنى لي وفائي عودةً
والهوى المجروح يأبى أن نعودا

لي نحو اللَّهب الذاكي به
لفْتة العودِ إذا صار وقودا[1]

***

لستُ أنسى أبداً ساعةً في العُمُرِ
تحت ريح صفَّقتْ لارتقاصِ المطر[2]
نوَّحتْ للذّكر وشكت للقمر[3]
وإذا ما طربت عربدت في الشجر
هاكَ ما قد صبَّت الريحُ بأذْن الشاعر
وهي تغري القلبَ إغراءَ الفصيح الفاجر :
« أيها الشاعر تغفو تذكر العهدَ وتصحو
وإذا ما التام جرح جدَّ بالتّذكار جرح[4]

(١) الذاكي : المشتعل ، المتأجج .
(٢) ارتقاص المطر : حركة المطر أثناء انهماره بغزارة .
(٣) الذكر : الذكريات .
(٤) التام : التأم ، أي برىء وشفي .

فتعلَّم كيف تنسى وتعلَّم كيف تمحو
أو كلُّ الحب في رأ يكَ غفرانٌ وصفح ؟

* * *

هاك . فانظر عدد الرملِ قلوباً ونساء
فتخيَّر ما تشاء ذهب العمرُ هباء
ضلَّ في الأرض الذي ينشدُ أبناء السماء
أيُّ روحانية تعصر من طينٍ وماء ! »

* * *

أيها الريح أجَلْ ، لكنَّما
هي حبِّي وتعلَّاتي ويأسي
هي في الغيب لقلبي خُلقت
أشرقت لي ، قبل أن تشرق شمسي
وعلى موعدها أطبقتُ عيني
وعلى تذكارها وسَّدتُ رأسي

جُنَّت الريح ونادته شياطين الظلام
أختاماً ! كيف يحلو لك في البدء الختام ؟
يا جريحاً أسلم الجرح حبيباً نكأهْ
هو لا يبكي إذا الناعي بهذا نبَّأهْ

أيها الجبّار هل تُصرع من أجل امرأه ؟

* * *

يا لها من صيحةٍ ما بعثت

عنده غير أليم الذّكرِ (1)

أرقت في جنبه ، فاستيقظت

كبقايا خنجر منكسرِ

لمع النهر وناداهُ له

فمضى منحدراً للنهرِ

ناضبَ الزاد ، وما من سفر

دون زادٍ غير هذا السّفرِ (2)

* * *

يا حبيبي كلُّ شيء بقضاءْ

ما بأيدينا خُلقنا تعساء

ربما تجمعنا أقدارنا

ذاتَ يومٍ بعدما عزّ اللقاء

فإذا أنكر خلّ خلّه

وتلاقينا لقاء الغرباء

---

(1) الذكر : الذكريات .

(2) ناضب : فارغ .

ومضى كلٌ إلى غايتــه
لا تقل شئنا، وقل لي الحظُّ شاءا

* * *

يا مُغنّي الخلد ، ضيّعتَ العُمُر
في أناشيــد تُغنّى للبشرْ
ليس في الأحياء من يسمعنا
ما لنا لسنا نغني للحجَر !
للجمادات التي ليست تعي
والرميمات البوالي في الحُفَر [1]
غنّها ، سوف تراهـا انتفضت
ترحم الشادي ، وتبكي للوتَـر

* * *

يا نداءً كلمـــا أرسلتُه
رُدَّ مقهوراً وبالحظّ ارتطم
وهتافــاً من أغاريد المنى
عـــاد لي وهو نواح ونــدم
رُبَّ تمثالِ جمـــالٍ وسنا
لاح لي والعيش شجو وظلم

(١) الرميمات البوالي : الجثث البالية ، يقصد الموتى .

ارتمى اللحن عليه جاثياً
ليس يدري أنه حسن أصم[1]

* * *

هدأ الليلُ ولا قلب له
أيها الساهر يدري حيرتك
أيها الشاعر خذ قيثارتك
غنِّ أشجانك ، واسكب دمعتك
ربَّ لحنٍ رقص النجمُ له
وغزا السُّحْبَ ، وبالنجمِ فتك
غنّه ، حتى ترى ستر الدجى
طلع الفجرُ عليه فانهتك

* * *

وإذا ما زهرات ذُعرت
ورأيت الرعب يغشى قلبَها
فترفّق واتئد واعزف لها
من رقيق اللحن ، وامسحْ رعبَها

(١) جاثياً : راكعاً .

ربما نامت على مهد الأسى
وبكت مستصرخات ربَّهـا

أيها الشاعر ، كم من زهرةٍ
عوقبت ، لم تدرِ يوماً ذنبها !

* * *

أقبلـــي كالصـــلاة

للشاعر محمود حسن إسماعيل

هو الشاعر الوحيد – من بين شعرائنا الأحيـاء[1] الذي آثرت أن اضمّن هذه المجموعة إحدى قصائده العاطفية ، بل أحلى مـا قاله في الحب : قصيدته « أقبلي كالصلاة » ، التي يضمها ديوانه « هكذا أغني » الذي صدر عام ١٩٣٧ ، وقبله كان الديوان الأول « أغاني الكوخ » عام ١٩٣٤ ، ثم تتابعت رحلة الشاعر الثرية والخصبة من خلال دواوينه : أين المفر ، نارٌ وأصفاد ، قاب قوسين، لا بدّ ، التائهون ، صلاة ورفض، نهر الحقيقة ، وهدير البرزخ .

في شعر محمود حسن إسماعيل مذاق خاص ، مـا أسرع ما يصافحنا ونحن نتأمل كلماته وأنغامه ، مذاق يختلط فيه عبير صعيد مصر ، بروائح الريف المصري ، بطقوس العبادات المتراكمة على ضفتي الوادي على مدار التاريخ السحيق، فرعونية وقبطية وإسلامية ، ويختلط فيه أيضاً تكوين الشاعر المتكىء

(١) توفي الشاعر عام ١٩٧٧ .

على ثقافة شرقية إسلامية ، ترفدها تطلعات الشاعر المستمرة الى الانفتاح على آفاق التجربة الشعرية المعاصرة ، في الوطن العربي ، وعلى الصعيد الانساني كلّه .

هذا المذاق الخاص ، المتميز ، المركّب ، هو الذي يجعلنا نكتشف أن لشعر محمود حسن إسماعيل قاموساً خاصاً ،قاموساً فريد الدلالات والإيماء ، عميق الهمس بالصور والرموز، لا بدّ من اكتشاف أغوار الشاعر – الضاربة الأعماق في التاريخ والحياة – للوصول إلى حقيقة هذه الدلالات ، وإعطائها ما يطابقها في عالم الصحو، عالم النثر اليومي، معانيها المباشرة، وإلا ظلت مغاليق هذا القاموس الشعري متأبّيةً علينا لا تمنحنا نفسها ، ولا تكشف لنا عن حقيقة مراميها ، قبل أن نستطيع الكشف عن نوعية هذا الشاعر المتمايز ، وطبيعة وجدانه الشعري المتكاثف ، المتعدد الدوائر والروافد والأصول .

يلفت النظر في شعر محمود حسن إسماعيل أيضاً، فضلاً عن هذا المذاق الخاص والقاموس الشعري الخاص ، مصريته ، طابَعُه المتناغم مع روح الانسان المصري في صدامه وارتطامه مع بعديْ الزمان والمكان ، هذه المصرية شيء أكبر من مجرد الاهتمام التسجيلي بظواهر الحياة أو البيئة ، أعمقُ من مجرد تناول مألوف الحياة على وجه هذا الوادي في أشجارها ونباتاتها وألوانها ، إنها نفاذ الى السر البعيد في وجدان الانسان ، قدرة

على استكناه الأغوار البعيدة في أعماقه ، تلك الأغوار التي يتاح لشتى الروافد والجداول أن تصبّ فيها ، وسرعان ما تتمثلها ، وتحفظ لنفسها - بعد ذلك - سَمْتَها الأصيل غير مشوب ، وإن أصبح أكثرَ ثراءً وعمقاً وخصوبة .

هذه المصرية كامنة أعمق الكمون فيما يمكن تسميته بـ «السر» هذا الخاطر الكوني الملحّ على محمود حسن إسماعيل : الشاعر والإنسان ، وهو السرُّ نفسه الذي استوقف المصري القديم أمام تجربة الشروق والغروب فبنى الأهرام واكتشف معنى الخلود ، وأمام فيضان النيل وانحساره فعبد النيل وقدّس الحياة ، واستوقف المصري الحديث أمام هتاف المآذن ورنين أجراس الكنائس ودوران دولاب الحياة على ظهر هذا الوادي المثقل بتراكمات السنين وأعباء الأزمنة وميراث الأجيال . وما يزال السر الغامض لغزاً ، لكنه في أعماق شاعرنا إغراء يقظ ، ونداء صامت أخرس ، وتوهج دام في لحظات الغيبوبة الروحية ، والانسلاخ من نثر الواقع اليومي ، بحثاً عن شعر الحياة في ليلها الساكن الوديع .

وبالإضافة إلى المذاق الخاص والقاموس الشعري المتفرد ، والبحث الدائب عن السر ، تقمصاً وتعبيراً ، إفضاءً وخوفاً من التصريح ، يدهشنا في شعر محمود حسن إسماعيل هذه الرؤية الكلية للإنسان والحياة ، إن التجارب الشعرية عنده تستمد قيمتها وغناها من هذا الإطار الأكبر الذي نطالعها فيه ،

فيبدو الجزءُ في إطار الكل ، وتكتسب التفاصيل الصغيرة معناها الدائم والسرمدي ، ويصبح الإنسان المنفرد على ظهر هذا الكوكب وتراً في لهاة الطبيعة وبضعة من الإرادة العليا القاهرة ، وحصاة في جسر الوجود البشري المتراكم ، وبنفس القدر : تصبح الشجرة المنفردة صوتـــاً شعرياً يضج بحداء الطبيعة للكون ، وترديداً لصوت الرياح المعبر عـــن ملحمة الوجود والعدم وهكذا ..

محمود حسن إسماعيل إذن هو شاعر التجارب الكبرى ، شاعر الرؤى الكونية الشمولية ، شاعر مـــا وراء الجزئي والمنعزل والمنظور ، إن – شيئاً ما – يستهوي دائماً بصيرته الشعرية النفاذة ، فإذا هو يطالع في الوجه الواحد عشرات الوجوه ، وفي المعنى الواحد عشرات التنويعات من المعاني ، وفي الصوت الواحد جنازةً كاملة من الأصوات أو سيمفونية متداخلة – ربما غير متجانسة – من الحوارات !

تُرى ، إلى أي مدى يكشف محمود حسن اسماعيل من خلال رحلته الشعرية المتنامية ، المثقلة بهبات العطاء الشعري الرفيع عن هذا السر ؟ عن إطار هذه الرؤية الكونية ! متى يُفصح الشاعر عن محاور قلقه العميق ، ووتر شجنه الكونيّ المأساوي ، ويضع أيدينا على حائط مبكاه الحقيقي دون جزع أو خجل أو وجل ؟

وسرٌّ في طوايا النفوس يُخفيه برقع !
كلما سلّه شعاعي من الليل ،
على موضعٍ ، يُداريه موضع
لستُ في حَيْرةٍ ، ولا في وقوف
فمع اللهِ نظرتي تتطلع
كلما فرَّ طائرٌ ، حاصرتْهُ ..
فأتاها من حالكِ التّيه يخشع
هدأةٌ .. وانطلاقـــةٌ
وإذا النورُ على الدَّرْبِ
يستهلُّ ، ويسطع !

وتأملوا معي بعض عناوين دواوينـــه : قاب قوسين ، لا بدّ ، صلاة ورفض ، نهر الحقيقة ، هدير البرزخ ، لتدركوا أي ريح تملأ هذا الشراع ، وأية وجهة يقصدها هـــذا الملاح المغامر ، الضارب أبداً في عُباب المجهول !

* * *

ولكن لماذا هذه القصيدة بالذات .. « أقبلي كالصلاة » !

إنها ليست من ديوانه الذي أفرده بكامله لتجربة حبه العظيم المدمّر ، هـــذا الحب الذي عصف به الشك ، فدمَّر جدران معبده ، وزلزل قوائم محاريبـــه — ديوان « أين المفرّ » .. وليست من شعره الأخير ، الذي يتآزر فيه نضج التجربة ،

واكتمال الأدوات الشعرية ، ووفرة المواد الأولية التي أتيحت للشاعر ، الذي أصبح أقل خشونة وقسوة مع نفسه ومـــع الحياة ، وإن كان أشدّ توهجاً بحقيقة الشعر ومتطلبات الفن .

ربما كان اختياري لها لسبب ذاتي محض، فديوان « هكذا أغني » هو أول ما وقعت عليه من شعر محمود حسن إسماعيل، كنت وقتها حدثاً غرّاً ، مفتوناً بشعراء المدرسة البيانيـــة المحافظة ، القوية النسج ، الرصينة القوافي ، الجزلة التعبير : من أمثال شوقي وحافظ والجارم ،وكما يتميز الضدّ بالضد ، فقـد تمايز في نفسي شعر محمود حسن إسماعيل على الفور، واستهواني، فانكببت عليه وأعرضت عما سواه، وكان دليلي – فيما بعد – إلى حساسية الشعر المعاصر كله بوجه عام ، والشعر الجديد .. بوجه خاص .

في ذلك العهـد كانت قصيدة « أقبلي كالصلاة » مزموراً للحب ، نتناشده فيما بيننا ، ونترنم بإيقاعاتـــه وموسيقاه ، الممتدّة ، الطويلة النفس ، ثم اختطفتنا صور القصيدة ولوحاتها الشعورية المتتابعـة : صورة الزورق الشريد الحيران في مهب الريح العاتية تحت جنح الدياجير ، والشاطىء المُرجى بعيد.. ولا أمل يلوح ، وصورة الأيكةِ الوارفة الظلال تمنح الأمان والسكينة ، والواحة السخية يفيء إليها العاشق المُجهد هرباً من هجير الأسى ، وصورة الفجر منسكباً على الحقول يمنحها حياةً وصلاةً ونشوةً وتهللاً ، وصورة أنسام الفجر ترفرف

وتذوب على حفيف السنابل ساكبة شعر الحياة الهامس المجنح، وصورة هذه الـ « أنتِ » التي يكررها الشاعر في مستهل ثمانية عشر بيتاً من قصيدته ، كلُّ بيت منها ينطق بقسمة من قسمات هذه الحبيبة ويضفي لونــاً إلى لوحتها الأخاذة الفاتنة ، وهي تذكرنا بصورة الـ « أنت » التي صاغهـا أبو القاسم الشابي في رائعته « صلوات في هيكل الحب » والتي استهل بهـا أيضاً اثنى عشر بيتاً من أبيات قصيدته ، كما يذكرنا البحر الشعري لقصيدة محمود حسن اسماعيل بالبحر الشعري: النفسي والنغمي الذي صيغت منـــه قصيدة الشابي وهو « بحـر الخفيف » ، بتفعيلاته المسترخية الممتدة كأنها حركة مجذاف يضرب وجـه الماء في هدوء ودعة وانسياب ، كذلك تذكرنا صَّرخات محمود حسن إسماعيل ونداءاته في ختام قصيدته واستغاثاته المتتابعة بحبيبته التي يراها قادرة على أن تمنحه الحياة والإبداع والطموح:

فتعالي نغيبُ عن ضجـة الدنـ
ـيا ، ونغضي عن الوجود ونرحل

وإلى عشّنا الجميـل ، ففيـــه
هزجٌ للهوى ، وظلٌ وجدول

أقبلي .. قبل أن تميل به الريـ
ـح ، ويهوي به الفناء المُعجَّل

أقبلي .. فالجراح ظمأى ، وكأسُ الـ
ـحبِّ ثكلى ، والشعرُ نايٌ معطَّل

تذكرنا صرخات هذا الختام ، بصرخات الشابيّ ونداءاته المتتابعة أيضاً في ختام قصيدته :

أنقذيني ، فقد سئمتُ ظلامي
أنقذيني ، فقد مللتُ ركودي

ثم وهو يقول :

وحرامٌ عليك أن تهدمي ما
شاده الحسن في الفؤاد العميدِ
وحرامٌ عليك أن تسحقي آ
مالَ نفسٍ تصبو لعيْشٍ رغيدِ
فالإلهُ العظيمُ لا يرجم العبْ
ـدَ ، إذا كان في جلال السجودِ

* * *

يبقى أن تُتاحَ لهاتين القصيدتين دراسةٌ نقدية مقارنة ، تكشف عما بينهما من مناخ نفسي مشترك ، وتخطيط شعري متماثل ، كما تكشف عما فيهما من تفرّد وتمايز وأصالة ، وكلتاهما صادرة عن وجدانٍ شعري عميق ، ممتلىء بتجربة الحياة ، شديد الحساسية لإيقاعات الكون ، متلاحم النسيج مع صور الطبيعة وظلالها ، فناءً صوفياً ، وانجذاباً روحياً ، ونزوعاً إلى التطهير والتطهر في محراب الطبيعة ، وديْرها الأقدس ،

وهي نزعة حارة متوهجة، نطالعها دائماً في أشعار الرومانتيكيين الكبار، الذين كانت لهم صلواتهم وغنائياتهم وأشواقهم حلماً دائماً ينشد الالتحام بالطبيعة والفناء فيها والتطهر من خلالها ..

ولسوف يجد النقد المقارن في تأمله لهاتين القصيدتين و كشفه عن عالم الشاعرين من خلالها، قيماً فنية جديرة بالدراسة والتنويه، وبأن توضع بين أيدي شداة الأدب ودارسيه وأمام أبصارهم، متضمنة لوناً من النفاذ إلى أعماق الإبداع الشعري في أصفى حالات تدفقه وانسيابه، وأكثرها عذوبة وجمالاً وشفافية ..

تُرى، متى يقدَّرُ لشعرنا العربي أن يغنّي بمثل هذه الصرخات الكونية الحارة، المتوهجة بنفاذ الرؤية الشعرية والوعي الإنساني، وأن تضاف إلى « ديوان الحب » فيه مثل هذه التراتيل الصادقة النفاذ، العميقة الهمس، الثرية العطاء !

* * *

أقبلي كالصلاة

أقبلي

أقبلي كالصلاةِ ، رقرقهـا النسـ
ـكُ ، بمحرابِ عـابدٍ متبتل

أقبلي آيـةً من الله عُلْـيـا
زفّهـا للوجود وحيٌ مُنْزَل

أقبلي، فالجراح ظمأى، وكأس الـ
حبّ ثكلى،والشعرُ نايٌ معطّـل

أنت لحن عـلى فمي عبقري
وأنا في حدائق الله بلبـل

أقبلي .. قبل أن تميل بنا الريـ
ـحُ ، ويهوي بنا الفناء المعجّل

زورقي في الوجود حيران شاكٍ
مثقلٌ بامى ، شريدٌ ، مضلّل

أزعجته الرياح ، واغتاله اللـيـ
لُ ، بجنحٍ من الدياجير مُسبل[1]

فهو في ثورةِ الخضمّ غريبٌ
خلَطَ النـوْح بالمنى وتنقـّل[2]

أقبلي يا غرام روحي ، فالشطُّ
بعيد ، والروح باليأس مثقل

وغمـام الحياة أعشى سوادي
ونور المنى بقلبي ترحّل[3]

أنا ميْتٌ تغافل القـبر عني
وهو إن يدرِ شقوتي ما تمهّل

فاسكبي لي السّنا وطوفي بنعشي
ينعش الروح سحرك المتهلّل

---

(١) الدياجير : الظلمات، جمع ديجور . الجنح من الليل : الطائفة منه. مسبل : مسدل .

(٢) الخضم : البحر العظم المتلاطم الموج .

(٣) أعشى سوادي : غطى على عيني

أنت لي :

أنت نبعي ، وأيكتي ، وظلالي
وخميلي ، وجدولي المتسلسل [1]

أنت لي واحـة أفيء إليهـا
وهجير الأسى يجنبي ُمشمـل

أنت ترنيمـة الهدوء بشعري
وأنا الشاعــر الحزين المبلبل

أنت تهويدة الخيــال لأحزا
ني ، بأطياف نورها أتعلّل [2]

أنتِ كأسي وكرمتي ومدامي
والطّلا من يديك سكْر محلل [3]

---

(١) الأيكة : الشجرة الكثيفة الملتفة الأغصان .

(١) أتعلل : أواسي النفس .

(٣) الطلا : الخمر .

أنت فجري على الحقول ، حياةٌ

وصـــلاة ، ونشوة ، وتهلُّل

أنت تغريدة الخلود بألحـــا

نِ ، وشعر الحياة لَغْوٌ مهلّل [1]

أنتِ طيفُ الغيوب رفرف بالرحـ

ـمةِ والطهر والهدى والتبتل

أنت لي توبة إذا زلّ عمري

وصحا الإثم في دمي وتململ

أنت لي رحمة براهـــا شعاع

هلّ من أعينِ السما وتنزّل [2]

أنت لي زهرة على شاطىء الأحـ

ـلام تروى بمهجتي ، وتظلّل [3]

أنت شعر الأنسام وسوست الفجـ

ـرَ ، وذابت على حفيف السنبل

---

(١) اللغو : الهراء الذي لا معنى له .

(٢) براها : خلقها وأوجدها .

(٣) المهجة : دم القلب ، يقصد بها « الروح » .

أنت سحرُ الغروب، بل موجة الاشـ
ـراق، عن سحرها جناني يسأل[1]

أنت صفوُ الظلال تسبح في النهـ
ـر، وتلهو على ضفاف الجدول

أنت عيد الأطيار فوق الروابي
أقبلي، فالربيع للطيرِ أقبل

أنت هولي، وحيرتي وجنوني
يومَ للحسنِ زهـوةٌ وتدلّل

أنتِ دير الهوى، وشعري صلاة
لكِ طابت ضراعتي والتذلّل

أنت نبع من الحنان، عليه
أطرق الفن ضارعاً يتوسل

أعين للخشوع تغري، فخلّبـ
ـها على لوعتي تُغضُّ وتُسْبل[2]

---

(١) جناني: فؤادي وقلبي.

(٢) تغض وتسبل: تغلق وتنطبق.

واتركيها وسحرها يتمادى

عَلّما « بابلٌ » بنجواه تُشغل

هو فني وملهمي .. فابعثيه

فهو من زهوه شحيح مُبخّل

يتغافى على الجفون ، فإن نا

جيته ، لجّ في الكرى وتوغّل

وانتشى من سناكِ وانساب في لحـ

ظك يحسو الضياء منه وينهل[1]

وانبرى من جفونِك البيض كالأقـ

ـدار يُردي كما يشـاء ويقتل

ليت لي من صراعه كلّ يوم

غزوةٌ في سكون قلبي تجلجل

ولك الصوت ناعماً عاده الشو

ق فأضحى حنينـه يترسّل

---

(١) يحسو : يرتشف .

نبرات كأنها شجَــنُ الأو

تارِ في عودِ عاشقٍ مترحّل[1]

أو حفيفُ الأذانِ في مسمع الفجـ

ـرِ نديُّ الصدى، شذيُّ المنهل

أو غناءُ الظِلال في خاطر الغُدْ

رانِ شعرٍ في الصمت عانٍ مكبّل[2]

أو نشيد أذابه الأفق النـّا

ئي ، وغنـّاه خاطري المتأمل[3]

ولك البسمة الوديعــة طهرٌ

وصفـــاءٌ ، وصبوة ، وتغزُّل

لذة الهمس في دمي تنقل الرو

ح لوادِ بصفوِ عمُري مظلّل

---

(١) مترحل : متنقل ومفارق .

(٢) عان مكبل : أسير مقيد .

(٣) النائي : البعيد .

فاسكبيها على جناني ، وخلّي
سحرها في مشاعري يتهدّل

ولك الهدأةُ التي تغمرُ الحسّ
فيروى من السكونِ ويثمل

واحةٌ للجمال ، قلبيَ فيها
من أسى الدهر ناسكٌ متعزّل

علّمتني ظلالُها كيف أنسى
صخَبَ الوهمِ وهو عصفٌ مزلزِل

ولك العفّة التي عاد منها
« مريميُّ » الستور فوقكِ مسبَل

فتعـــالي :

فتعاليْ نغيب عن ضجة الدن
يا ، ونمضي عن الوجود ونرحل

وإلى عشنـــا الجميل ، ففيــه
هَزجٌ للهوى، وظلٌ، وسلسل[1]

وعصافــير للـــنى تتغــنى
بالترانيم بين عشبٍ وجدول [2]

وغرامٌ مقدس كاد يضوي
نوره العذب في سمانا ويشمل[3]

ووفـــاء يكاد يسطعُ للدنـ
ـيا بشرعٍ إلى المحبين مرسَل

عاد للعش كلُّ طيرٍ ، ولم يبـ
ـقَ سوى طائرٍ شريدٍ مخبَّل[4]

هو قلبي الذي تناسيت بلوا
هُ ، فأضحى على الجراح يولول

---

(١) هزج : غناء ومرح . سلسل : الماء العذب الجاري .
(٢) الترانيم : جمع ترنيمة ، الأغنية أو الأنشودة .
(٣) يضوي : يتوهج .
() المخبل : المجنون ، من فقد الوعي والاتزان .

أقبلي .. قبل أن تميل به الريـ

حُ ، ويهوي به الفناء المعجل[1]

أقبلي..فالجراحُ ظمأى،وكأس الـ

حب ثكلى ، والشّعرُ ناي معطل

***

(١) المعجّل : السريع الأكيد الحدوث والوقوع .

فهرس الكتاب

رقم الإيداع : ٢٢٩٧ / ١٩٩١
الترقيم الدولى : ٨ ـ ٠٠٥٠ ـ ٠٩ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

إن شعرنا العربي على امتداد قرون متطاولة حافلة بالكنوز الثمينة ، والدرر الكامنة ، تنتظر دائمًا من يجلوها ويعرضها .

وفي الوقت نفسه ، ما أندر المجموعات والمختارات الشعرية صدرت عن مكتبتنا العربية ، وحديثها ، لتضع بين يدي ال العربي ، والقارئ الأجنبي أيضًا ، تصوُّرًا عامًا لروح الشعر العربي ، وإطارًا عامًا لأبرز شخصياته وأعلامه ، وأكثر ملامحه صدقًا وأصالة .

وظلت مكتبة الشعر العربي ، تعاني هذا الفراغ الكبير ، خاصة ونحن نتجه مع إيقاع العصر وازدحام متطلبات الحياة إلى المختصرات والمختارات : المبوَّبة ، الموضوعية الاختيار ، المعتمدة في تصنيفها على ذوق عصري ، وفكر جديد ، يكشفان في الأثر الأدبي والشعري أبعادًا جديدة ويعيدان عرضه وتنسيقه وتنظيم جداوله وروافده .

وآثرتُ أن تكون البداية قصائد الحب في شعرنا العربي ، وما أكثرها ، وما أحفلها بالقيم الإنسانية والفنية والحضارية . ماذا لو اخترت من بينها أجمل عشرين قصيدة ، ليعيد تأملها وتذوقها القارئ المعاصر ، مع قدر يسير من التقديم ، للنص والشاعر معًا ، بحيث يتم وضع القصيدة في إطار عصرها ، وفي داخل مناخها النفسي والتاريخي .

ولسنا نزعم أن هذه القصائد ، هي وحدها أجمل القصائد وأروعها وأكثرها تمثيلًا لحقيقة شعر الحب في ديوان الشعر العربي الكبير ، إنه مجرد اختيار خاص ، ساعد عليه ميل وهوى ، كثيرًا ما تجاذبني إلى بعض القصائد المختارة ، فعشت فيها طويلًا، وتأملتها كثيرًا ، فلما سنحت الفرصة لوضعها داخل هذا الإطار كانت أسبق من غيرها إلى ذاكرتي واهتمامي ، فعنيت بها قبل سواها ..

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣